مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ

فاتح شطر الأنضول (١) ومحاصر القُسْطَنْطِينِيَّة (٢)

بقلم الدكتور محمود شيت خطاب

القسم الاول

نسبه وايامه الاولى

هو مَسْلَمَة بن عبدالملك بن مَرْوَان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُمَيَّة بن عبد شَمْس بن عبد مَنَاف بن قُصَيّ القُرَشِي الأُمَوِي (٣)

أبوه : أمير المؤمنين عبدالملك بن مَرْوان (٤) ، وامه من أمّهات الأولاد (٥) ، ويريدون بكلمة أمّهات الأولاد : الجواري والاماء اللّواتي ولدن لمواليهن ذكرانا.

وقد ذكر الامام ابن حَزْم الاندلسي (٦) في رسالته : (أسماء الخلفاءوالولاة

---

(١) الأنضول أوالانطول ، لفظة يونانية ، معناها : المشرق ، اسم لشبه جزيرة كبيرة ، هي عبارة عن آسيا الصغرى كما تطلق عليها اليوم . يحدها من الشمال الغربي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الا سود ، ومن الشرق جبال إرمينية وفروعها الجنوبية الغربية إلى الا سكندرونة ، ومن الجنوب البحر الا بيض المتوسط ، ومن الغرب الا رخبيل اليوناني ، وهي ما نسميه : تركيا ، عدا القسم الاوروبي منها انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/٦٣—٦٥) والجغرافية العمومية (١٨١—١٨٥)

(٢) القسطنطينية : مدينة شهيرة جداً ، كانت عاصمة الا مبراطورية البيزنطية الشرقية ، بناها قسطنطين سنة (٣٣٠م) ، وهي مسورة بسور حصين ، ارتفاعه ما بين اربعة عشر قدماً وعشرين قدماً ، ومحيطها أكثر من اثني عشر ميلا ، انظر التفاصيل في منجم العمران (٢/٢٩٩ — ٣٠١) .

(٣) انظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٥/٢٢٣) وتهذيب الأسماء واللغات (١/٢٠٩) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣ — ١٠٥) وفوات الوفيات (٢/٣١) وقادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥) .

(٤) انظر سيرته المفصلة في : قادة فتح المغرب العربي (٢/٩٥ — ١٥٢) .

(٥) ابن الأثير (٤/٥١٩) وابن عساكر — تاريخ دمشق — نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٩٢) — تاريخ — (٢٢/٤٨٩) وانظر الطبري (٦/٤٢٠) .

(٦) الامام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الا ندلسي (٣٨٤ هـ — ٤٥٦ هـ) .

وذكر مُدّدهم) ما نصّه : « وفي أيامه — يريد أيّام سليمان بن عبدالملك — حوصرت (القُسْطَنْطِينيّة) وحاصرها أخوه مَسْلمة ، وسنُّ مَسْلَمَة أربع وعشرون سنة »(١) وكان حصار القسطنطينية سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢) (٧١٧م) .

ومعنى ذلك أنّ مسلمة ولد سنة أربع وسبعين الهجرية (٦٩٣م) .

ولست مع الامام ابن حزم الأندلسي فيماذهب إليه ، لأنّ أوّل قيادة تولاّها جيش مسلمة كانت سنة ست وثمانين الهجرية (٣) ، وليس من المعقول أن يتولى مسلمة قيادة جيش من جيوش المسلمين ، في أخطر جبهة من جبهات القتال بالنسبة للدولة الأموية ، وهي جبهة مقاتلة الروم في عقر دارهم ، وهو في سن الثانية عشرة ! !

والمعقول أن يكون عمره حينذاك عشرين سنة على الأقل ، أي أنّ ولادة مسلمة كانت حوالي سنة ست وستين الهجرية (٦٨٥م) .

ومهما يكن من أمر تاريخ مولد مسلمة الذي أغفله المؤرخون ، فانّ أبناء الخلفاء لم يكونوا يتولون القيادة ويشهدون المعارك الطاحنة قبل أن يبلغوا السّادسة عشرة من سنيّ حياتهم ، ولكنهم لا يتأخرون عن العشرين إلا نادرا ، خاصة إذا كانوا من ذوي الكفايات القيادية العالية التي تظهر عليهم مبكراً — كما هو الحال في مسلمة وأمثاله من بني أميّة ومن الذين تولوا القيادات العسكرية في عهدهم كمحمد بن القاسم الذي تولى القيادة وعمره سبع عشرة سنة كما هو معروف .

نشأ مسلمة وترعرع في ظروف ملائمة لاستكمال متطلبات شخصيته فكرياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً : فهو من بيت السُّلطة والملك — بني أميّة ، وأهله أمراء وقادة وخلفاء ، وظروفهم الادارية والعسكرية والسياسية لا تخلو من مشاكل وصعوبات تعين على التعلّم والتدريب ، وكان التعليم لاستيعاب الثقافة المتيسرة حينذاك ميسوراً لبني أميّة ولغيرهم من الناس ، لذلك نشأ في دمشق عاصمة الخلافة ليتعلّم القرآن ويروي الحديث ويحفظ الأخبار ويتقن علوم اللُّغة وفنون الأدب شعراً ونثرا ، ثم ليمارس القضايا الادارية والسياسية عن كثب ويرى كيف تُصرّف

---

(٧) أسماء الخلفاء والولاة وذكر مدهم (٣٦٢) — ملحق بكتاب جوامع السيرة .

(٨) ابن الأثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) وفتح القسطنطينية (٣٨) والامبراطورية البيزنطية (٣٦٦) .

(٩) ابن الاثير (٥٢٤/٤) والعبر (١٠١/١) .

الأمور وتُعطى القرارات . كما تدرب على ركوب الخيل والفروسيّة والسباحة والرمي بالنبال والضرب بالسيف والطعن بالسنان ، حتى أضحى في الميادين الثقافيـــة والادارية والسياسية والعسكرية ذا مرتبة سامية ومكانة مرموقة ومنزلة رفيعة .

ولعلّ مما زاد في فرص تعليم وتدريب مسلمة ، أنه تلقّى علومه وتدريبه في كنف والده أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان بعد استقرار ملكه في الدولة الاسلامية واستعادة (الوحدة) سنة ثلاث وسبعين الهجرية ، إذ قضى على الخوارج في (البحرين) وأعاد بناء (الكعبة) بمكّة المكرّمة على ما كانت عليه قبل عبدالله بن الزبير ، فانطلقت الجيوش الاسلامية للفتح واسترداد المناطق التي سيُسْطِر عليها في إيران وبلاد الروم وإفْريقيّة، وكان من ثمرات استعادة (الوحدة) أن أعادت الدولـــة الاسلامية بقيادة عبدالملك بعد ما عاناه من فتن داخلية واضطرابات وحروب أهلية ومشاكل خارجية ، كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون ، بعدما كان عبدالملك يدفع الأتاوة لامبراطور القسطنطينيّة منذ تولّيه الخلافة حتى استعاد(الوحدة) أيام الفتن الداخلية والحروب الأهليّة (١) .

وتربّى مسلمة في كنف أبيه بعد استعادة (الوحدة) للدولة الاسلامية بجو كله استقرار وأمن ودعة وبناء علمي وإداري وسياسي وعسكري، في بداية العصر الذهبي لحكم بني أميّة ، برعاية والده الحصيف العالم الداهية الذي يُعَدُّ بحق أبرز خلفاء بني أميّة في الشام علماً وعملاً ومقدرة وذكاءً ، فأفاد مسلمة من رعاية والده في وقت تفرّغ فيه عبدالملك لرعاية شؤونه الخاصة أكثر من السّابق — يوم كان في دوامة الفتن والقـــلاقل والاضطرابات ، وبقي يحظى بالرعاية الأبوية والعائلية الكاملة ، حتى توفي عبدالملك سنة ست وثمانين الهجرية (٢) (٧٠٥م) ، فأرسى عبدالملك أسس شخصية ابنه مسلمة ، وبدت ملامحها واضحة جليّة في وقت مبكّر من عمره ، تلك الأسس التي كانت عبارة عن: الدين والتفقه فيه والتمسك بتعاليمه والعربية واتقان علومها ، والسياسة وممارسة قضاياها ، والادارة وحلّ مشاكلها ،

---

(١) انظر التفاصيل في : قادة فتح المغرب العربي (١١٢/٢ — ١١٤) وانظر ابن خلدون (١٥٢/٣)
(٢) تاريخ بغداد (٢٩١/١٠) وتاريخ الخميس (٣١١/٢) .

والعسكرية والتدريب على متطلباتها ؛ فكان مسلمة بحق نسخة طبق الأصل من والده عبدالملك واشبه الناس به عدا الخلافة التي حرم منها ، لأن أمّه من أمّهات الاولاد ، وكان لا يتولى الخلافة إلا أمويٌّ أمه عربية حرة ، بالرغم من : « انه كان أحق بالملك من سائر إخوته (١) » .

وحين اشتد مرض عبدالملك جمع بنيه وهو على فراش الموت وأوصاهم قائلا : « أوصيكم بتقوى الله ، فانها أزين حلية وأحصن كهف ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حقّ الكبير ؛ وانظروا مسلمة فاصدروا عن رأيه ، فانه نابكم (٢) الذي عنه تفترون ، ومِجنكم (٣) الذي عنه ترمونه ؛ فأكرموا الحجّاج فانه الذي وطّأ لكم المنابر ، ودوّخ لكم البلاد ، وأذل الأعداء . وكونوا بني أم بُرْدة لا تدبّ بينكم العقارب ، وكونوا في الحرب أمراراً ، فان القتال لايقرّب ميتة ؛ وكونوا للمعروف مناراً ، فان المعروف يبقى أجره وذكره (٤) ؛ وضعوا معروفكم عند ذوي الأحساب ، فانهم أصون له وأشكر لما يُؤْتَى إليهم منه ، وتمغدوا (٥) ذنوب أهل الذنوب ، فان استقالوا فاقيلوا ، وإن عادوا فانتقموا (٦) . » .

لم يذكر الخليفة الداهية عبدالملك بن مروان ، في وصيته لبنيه وهو يحتضر تلك الوصية التي تعتبر خلاصة تجاربه في الحياة ، صاغها بكلمات معدودات ، غير مسلمة من بين أولاده ، وقد ذكره بالثناء العاطر والتقدير البالغ ، مما يدل على مبلغ ثقته به واعتماده عليه .

وليس من السهل على أحد أن يحوز على ثقة شخصية فذّة واعية كعبدالملك ؛ ولولا أنّ مسلمة كان حرّياً بالثقة الكاملة والاعتماد المطلق ؛ لما أشاد به أبوه — وهو على فراش الموت — هذه الاشادة النادرة .

لقد تهيّأ لمسلمة الطبع الموهوب والعلم المكتسب والتجربة العملية ، فنال مانال من تقدير والده بخاصة وأهل بيته بعامة والمؤرخين من بعده ، فكان الرجل المناسب للمناصب المناسبة التي تولاّها سياسياً وإدارياً وعسكرياً .

---

(١) دول الاسلام (٦٢/١) وانظر الأعلام (١٢٢/٨) ومسلمة بن عبدالملك (٤٥) .
(٢) الناب : السن في جانب الرباعية ، وللانسان نابان في كل فك . وناب القوم : سيدهم .
(٣) المجن : الترس . وفلان مجنكم : حاميكم
(٤) في رواية : ذخره . (٥) تمغد الشيء : امتصه ؛ استوعبه
(٦) ابن الأثير (١١٧/٤ — ١١٨) .

جهـــاده

١ – في ارض الروم

في سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٥م) غزا مسلمة أرض الروم (١)، وفي سنة سبع وثمانين الهجرية (٧٠٦م) غزا الروم فأثخن فيهم بناحية (المَصِّيْصَة)(٢) وفتح حصوناً كثيرة منها : حصن (بُوْلَق) و (والأخْرم) (٣) و (بُوْلُس) و (قَمْقِيْم) (٤) وقتل من المستعربة ألف مقاتل وسبى أهاليهم (٥) .

وفي سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) غزا مسلمة والعبّاس بن الوليدبن عبدالملك بلاد الروم ، وكان الوليد بن عبدالملك قد كتب الى صاحب (إرْمِيْنِيَة) يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يُعَرِّفه أنّ (الخَزَر) وغيرهم من ملوك جبال (إرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده ، ففعل ذلك، وأكثر الوليد من قواته القاصدة أرض الروم، فساروا نحو (جزيرة ابن عمر) ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم . واصطدم الطرفان، فانهزم الروم، ثم أعادوا الكرّة فانهزم المسلمون، ولكنّ العباس بن الوليد بن عبد الملك ثبت على رأس (السّاقة) صارخاً : « أين أهل القرآن الذين يريدون الجنّة ؟ ! »، فقيل له : نادهم يأتوك ، فنادى : يا أهل القرآن ! فاقبلوا جميعاً ، فهزم الله الروم حتى دخلوا (طُوَانة) (٦) ، وحاصرهم المسلمون في هذه المدينة ، وفتحوها في

(١) الطبري (٤٢٦/٦) وابن الأثير (٥٢٤/٤) وابن خلدون (١٥٣/٣) ، والنجوم الزاهرة وفيه افتتح مسلمة بن عبدالملك حصن بولق وحصن الأخرم ، وانظر العبر (١٩١/١) وفيه : افتتح مسلمة حصنين في بلاد الروم ، وفي تاريخ الاسلام للذهبي (٣٠٢/٤) : واول ما ولي غزو الروم في اخر دولة ابيه ، فافتتح ثلاثة حصون ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٢٩٣/١)

(٢) المصيصة : مدينة على شاطئ نهر (جيحان) من ثغور الشام بين انطاكية و بلاد الروم وتقارب طرطوس ، وكانت ذات سور وخمسة أبواب ، انظر معجم البلدان (٨٠/٨) والمسالك والممالك (٤٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٦٤) .

(٣) انظر الطبري (٤٢٩/٦) وابن الأثير (٥٢٨/٤) ، وفي ابن خلدون (١٥٥/٣) : الأخزم ، وهو حصن في منطقة المصيصة لا ذكر له في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا .

(٤) قمقيم : وردت كذا في ابن خلدون (١٥٤/٣) ، ووردت في الطبري (٤٢٩/٦) وابن الاثير (٥٢٨/٤) : قمقم .

(٥) ابن خلدون (١٥٥/٣) ، وانظر الطبري (٤٢٩/٦) وابن الأثير (٥٢٨/٤) ، وحصون بولق والأخرم و بولس وقمقم ، ولا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا ، ومن الواضح أنها حصون صغيرة في المنطقة الجبلية المحيطة بالمصيصة .

(٦) طوانة : بلد بثغور المصيصة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٥/٦) والعبر (١٩٣/١) وفي المعارف (٣٥٩) : وفي سنة ثمان وثمانين فتحت الطوانة .

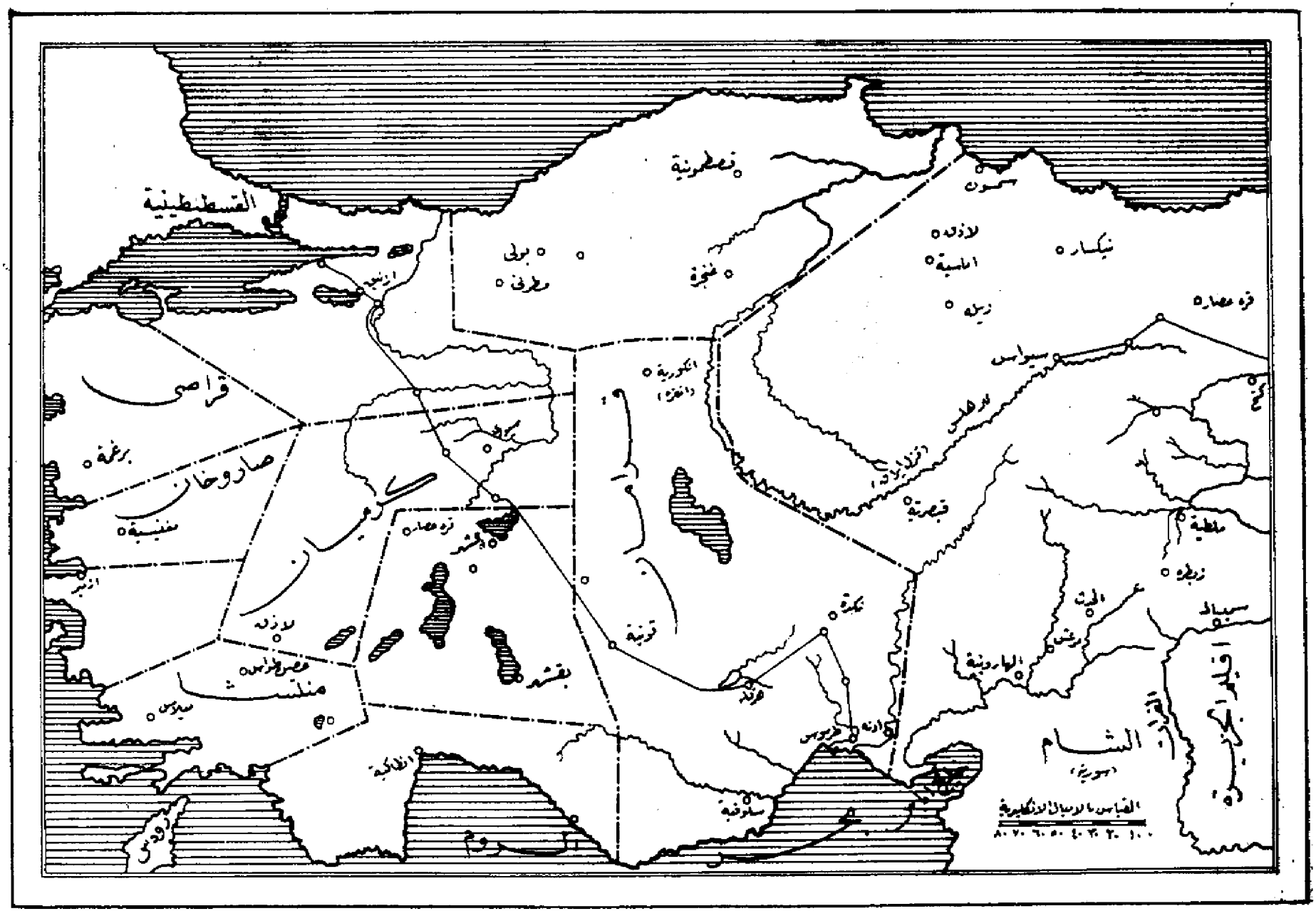
القسطنطينية
قراصي
صاروخان
منتشا
كرمان
الشام
(سورية)
البحر الأبيض
المقياس بالأميال الانكليزية

جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها (١)، كما فتح مسلمة في هذه السنة (حرثومة) (٢) وفي هذه السنة غزا مسلمة الروم أيضاً ففتح، ثلاثة حصون: أحدها حصن (قُسْطَنْطِيْن) و (غزالة) و (والأخْرَم) وقتل من المستعربة نحو أمن الف واخذ الأموال (٣).

وقد تكرر فتح حصن (الأخْرَم) سنة سبع وثمانين وثمان وثمانين الهجريتين، ومن المحتمل أنّ الروم استعادوه فعاد إليه مسلمة وفتحه ثانية.

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م)، غزا مسلمة والعبّاس بن الوليد بن عبدالملك الروم، فافتتح مسلمة حصن (عَمّوْرِيّة) (٤) ولقي من الروم جمعاً فهزمهم. وقيل: إنّ مسلمة قصد (عَمّورية)، فلقى جمعاً من الروم كثيراً، وافتتح (هِرْقَلة) (٥) و (قَمُوْنِيّة) (٦)

وفي هذه السنة أيضاً، غزا مسلمة الترك حتى بلغ (الباب) (٧) من ناحية (أذَرْبِيجان) (٨)، ففتح حصوناً ومدائن هناك (٩)

---

(١) الطبري (٤٣٤/٦) وابن الأثير (٥٣١/٤) والعبر (١٠٣/١) وفي الطبري (٤٣٤/٦): أنه فتح طوانة كان في جمادى الاخرة.

(٢) العبر (١٠٣/١) والظاهر أنها قرية أو بليدة في منطقة طوانة لا ذكر لها في الكتب الجغرافية القديمة التي بين أيدينا.

(٣) في الطبري (٤٣٦/٦): حصن قسطنطينية، وانظر ابن الأثير (٥٣٢/٤).

(٤) عمورية: بلد من الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٦/٦ – ٢٢٧)، وكان اسمها: Ammorium

(٥) هرقلة: مدينة ببلاد الروم، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤٣/٨ – ٤٤٤).

(٦) الطبري (٤٣٥/٦): وفيه: قمودية وابن الأثير (٤٣٤/٤)، وفي ابن خلدون (١٥٤/٣) قمولية: ، ولم أجد لقمونية ذكراً في الكتب الجغرافية التي بين أيدينا في منطقة بلاد الروم، بل ذكرها في إفريقية، انظر معجم البلدان (١٦٢/٧).

(٧) الباب: مدينة باب الأبواب، ميناء كبير على بحر الخزر، وهي مدينة كبيرة محصنة، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٠٩ – ١١٩) ومعجم البلدان (٩/٢) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٠٦)، وهي مدينة دربند كما يطلق عليها في الوقت الحاضر.

(٨) أذربيجان: كلمة اذربيجان في الفارسية معناها: ارض النار أو معابد النار، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك. وأذربيجان: صقع جليل ومملكة عظيمة، والغالب عليها الجبال، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٩/١) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٨) وآثار البلاد واخبار العباد (٢٨٤).

(٩) الطبري (٤٤١/٦) وابن الأثير (٤٤٩/٤) وابن خلدون (١٤٤/٣). وفي فتوح البلدان (٢١٨). ولما كانت سنة (٨٩) اجتمع الجراجمة إلى مدينتهم، وأتاهم قوم من الروم من قبل –

وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩ م)، غزا مسلمة أرض الروم ، ففتح الحصون الخمسة التي بـ (سورية) (١)، ومن تدقيق سير الفتح التي نهض به مسلمة في تلك الايام ، يتضّح أنّ الحصون الخمسة تقع شمالي (جزيرة ابن عمر) متاخمة لمدينة (ديار بكر) من الشمال .

وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩ م) غزا عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك الصّائفة (٢) ، وكان على ذلك الجيش مسلمة . وفيها عزل الوليد بن عبدالملك عمّه مسلمة ، فغزا مسلمة الترك من ناحية (أذْرَبيْجَان) حتى بلغ (الباب)، وفتح مدائن وحصوناً ونصب عليها المجانيق (٣) .

– الاسكندرونة وروذس ، فوجه الوليد بن عبدالملك اليهم مسلمة بن عبدالملك ، فأناخ عليهم في حلق من الخلق ، فافتتحها على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام ويجري على كل امرئ منهم ثمانية دنانير ، وعلى عيالاتهم القوت والقمح والزيت ، وهو مديان من قمح ، وقسطان من زيت ، وعلى أن لا يكرهوا ولا أحد من أولادهم على ترك النصرانية ، على أن يلبسوا لباس المسلمين ، ولا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية او وعلى أن يغزوا مع المسلمين فينقلوا أسلاب من يقتلون مبارزة ، وعلى أن يؤخذ من تجاراتهم واموال موسريهم ما يؤخذ من اموال المسلمين ، فأخرب مدينتهم ونزلوا مناطق (حمص) ، ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه انطاكية ، ثم هرب الى بلاد الروم . . . انتهى

وفي معجم البلدان (٨٠/٣) : الجرجومة : مدينة يقال لأهلها الجراجمة ، كانت على جبل اللكام بالثغر الشامي فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية . والجراجمة : جيل . . . انتهى

اقول : وهؤلاء كانوا يسكنون ما يسمى : جبل لبنان في الوقت الحاضر مع امتداده الى انطاكية وكانوا نصارى وما يزالون ، ولكن من الصعب تصديق : أن مسلمة نهض بالقضاء على هذه الفتنة الداخلية سنة (٨٩) هـ ، لأنه كان مشغولا في تلك الأيام بغزوتين كبيرتين ، ومن المحتمل أنه قضى عليها في فرصة سنحت له قبل خوضه لتلك الغزوتين أو بعدهما .

وفي تاريخ الاسلام (٣٠٢/٤) : غزا مسلمة (عمورية) والتقى بالمشركين فهزمهم .

(١) الطبري (٤٤٢/٦) وابن الأثير (٥٤٧/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) والنجوم الزاهرة (٢٢١/١) والعبر (١٠٤/١) . وسورية : موضع الشام بين خناصرة وسلمية والعامة تسميها : سوية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧١/٥) ومن الواضح أن الحصون الخمسة التي فتحها بسورية هي التي تقع في الاقليم المتاخم لجزيرة ابن عمر من الشمال ، أي شمالي مدينة ديار بكر الحالية في الواقعة في الجمهورية التركية ، وانظر تاريخ الاسلام (٣٠٢/٤) وانظر تاريخ ابن خياط (٣٠٦/١)

(٢) الصائفة : الغزوة في الصيف ، وبها سميت غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفاً أثناء البرد والثلج .

(٣) الطبري (٤٥٤/٦) وابن الأثير (٥٥٥/٤) وابن خلدون (١٤/٣) والنجوم الزاهرة (٢٢٢/١) وتاريخ الاسلام (٣٠٢/٤)

وفي سنة اثنتين وتسعين الهجرية (٧١٠م) غزا مسلمة أرض الروم، ففتح حصوناً ثلاثة ، وجلا أهل (سُوْسَنه) إلى بلاد الروم (١) .

وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) غزا مسلمة الروم ، فافتتح (ماسة) وحصن (الحديد) و (غزالة) و (بَرْجَمة) (٢)من ناحية (مَلَطْيَة) (٣)، وكان مسلمة قد فتح حصن (الغزالة) سنة ثمان وثمانين الهجرية كماذكرنا سابقاً، والظاهر أنّ الروم استردوها من المسلمين ، فاستعادها مسلمة ثانية .

وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢م) ، غزا مسلمة أرض الروم، فافتتح (سَنْدَرَة) (٤) ، وهي حصن من حصون الروم التي أقامها البيزنطيون للدفاع عن عاصمتهم (القسطنطينية) من الجنوب ، ومن الغزو عاد إلى الديار المقدسة، فحج بالناس في هذه السنة (٥) .

وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٣م) ، غزا مسلمة مدينة (باب الأبواب) وفتحها وخرّبها ثم بناها بعد ذلك (٦) بعشر سنين (٧) أو تسع سنين (٨) . وكانت هذه المدينة للمسلمين من قبل ، وقد انتقض أهلها فأعادها مسلمة للمسلمين .

---

(١) الطبري (٤٦٨/٦) وابن الأثير (٥٦٩/٤) وابن خلدون (٣/ ١٤٥) والنجوم الزاهرة (١/ ٢٢) وسوسنة حصن من حصون الروم ، هو اكبر الحصون التي فتحها مسلمة في تلك الغزوة ، وفي النجوم الزاهرة (٢٢٥/١) نص علي : ويقال إنه بلغ الخليج ، والخليج بحر دون القسطنطينية انظر معجم البلدان (٤٦٠/٣) ، ومعنى هذا أن سوسنة تقع في المنطقة الجنوبية لمدينة القسطنطينية وأحد الحصون المنيعة للدفاع عنها من الجنوب .

(٢) برجمة : حصن للروم ، ورد ذكره في شعر جرير ، انظر معجم البلدان (١١٢/٢).

(٣) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم بلا د الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٠/٨) واثار البلاد واخبار العباد (٥٦٤) والمسالك والممالك لابن خرداذبة (٩٧)، والبلدان (٢٥) لابن الفقيه وتقويم البلدان (٣٨٤) ، وانظر ما جاء عن هذه الغزوة في الطبري (٤٦٩/٦) وابن الأثير (٥٧٨/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) والنجوم الزاهرة (١ / ٢٢٦) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٠٩/١) .

(٤) العبر (١٠٩/١) ، ولا ذكر لسندرة هذه في الكتب الجغرافية القديمة .

(٥) الطبري (٤٩١/٦) وابن الأثير (٥٨٢/٤) وانظر تاريخ ابن خياط (١٣٠/١) .

(٦) والنجوم الزاهرة (٢٢٩/١) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) .

(٧) البداية والنهاية (٩ / ١١٧) ، والصحيح بتسع سنين لانه بناها سنة ثلاث عشرة الهجرية انظر المعارف (٣٦٥) وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣١١/١) .

(٨) البداية والنهاية (٩ / ٣٢٨)

وفي سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤م) غزا مسلمة الصائفة (١) في بلاد الروم.

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، غزا مسلمة أرض (الوضّا حيّة) ، ففتح الحصن الذي فتحه الوضاح (٢) . وفيها أيضاً غزا مسلمة (بَرْجَمَة) وحصن (ابن عوف) وافتتح أيضاً حصن (الحديد) و (سرورا)(٣) وشتى بأرض الروم (٤) ، وكان مسلمة قد فتح حصن (الحديد) وحصن (برجمة) سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، والظاهر أنّ هذين الحصنين انتقضا ، فأعادهما مسلمة للمسلمين سنة سبع وتسعين الهجرية .

٢ – حصار القُسْطَنْطِينيّة

أدرك المسلمون أنّ حدودهم الشمالية مهددّة بالروم ، وأنّ فتح القسطنطينية يزيح عن كاهل الفاتحين أعباء الدفاع عن تلك الحدود .

والمغرب العربي من جهة أخرى ، كانت من أملاك الامبراطورية البيزنطية الشرقية التي كانت عاصمتها القسطنطينية ، وقد عانى المسلمون ماعانوا من أهوال في فتحها وفي الحفاظ عليها ، وما دامت القسطنطينية بيد الروم ، فهذه الأصقاع الواسعة معرضة للغزو وكلّما ضعف المسلمون أو تفرّق شملهم ، قوي الروم واشتدّ ساعدهم.

لذلك جرت عدّة محاولات لفتح هذه المدينة .

أول تلك المحاولات جرت سنة اثنتين وثلاثين الهجرية (٦٥٠م) في عهد عثمان ابن عفّان رضي الله عنه ، وكانت هذه الحملة بقيادة معاوية بن أبي سفيان أمير الشام آنذاك (٥) .

---

(١) البداية والنهاية (١٤٢/٩) والنجوم الزاهرة (٢٣٣/١) وتاريخ ابن خياط (٣١٨/١) .

(٢) الوضاح : قائد من قادة مسلمة ، انظر ابن الأثير (٨١/٥–٨٢) ، والظاهر أنه من القادة المرءوسين غير المشهورين ، وانظر ابن الأثير (٢٦/٥) حول هذا الفتح .

(٣) برجمة وحصن ابن عوف وحصن الحديد وسرورا ، حصون في منطقة (ملطية) ، انظر الطبري (٤٦٩/٦) وابن الأثير (٥٧٨) وابن خلدون (١٥٤/٣) .

(٤) البداية والنهاية (١٧٠/٩) والنجوم الزاهرة (٢٣٤/١ – ٢٣٥) ، وانظر تاريخ خليفة بن خياط (٣١٩/١) .

(٥) العبر (٣٢/١) .

والمحاولة الثانية جرت في أيام معاوية بن أبي سفيان سنة خمسين الهجرية (٦٦٣م) ، وكانت هذه الحملة بقيادة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (١) .

ولكن هاتين الحملتين لم يكتب لهما النجاح (٢) .

وفي سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥م) بدأ سليمان بن عبدالملك بتجهيز الجيوش لفتح القسطنطينية (٣) بعد أشهر معدودات من توليه الخلافة ، فقد توفي سلفه الوليد ابن عبدالملك في جمادى الآخرة من سنة ست وتسعين الهجرية (أواخر شباط — فبراير — ٧١٥م) ، فاقتفى سليمان خطة سلفه بضرب عاصمة الروم ضربة كبيرة بقوة جسيمة (٤) ، تلك الخطة التي لم يستطع سلفه تحقيقها في أيامه لانشغال جيوشه في حمل مهمة الفتح بجبهات مختلفة شرقاً وغرباً وشمالاً ، بالرغم من أنه مهّد لفتح القسطنطينية بتعرضه المستمر طيلة أيام حكمه بالجبهة الرومية على حدود دولته من الشمال .

---

(١) العبر (٥٦/١) ، وشارك في هذه الحملة عدد من كبار الصحابة ، منهم : الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وابو أيوب الانصاري الذي توفي في أثناء الحصار ودفن قرب القسطنطينية حيث يوجد قبره الآن ، وعبدالله بن العباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم.

(٢) بعد حصار القسطنطينية سنة خمسين الهجرية وإخفاق هذا الحصار ، عسكر المسلمون في ميناء كيزيكوس (Cyzicos) واتخذوه قاعدة أمامية لأعمالهم العسكرية في سبع سنوات ، وإلى ذلك يشير ابن الأثير في حوادث سنة أربع وخمسين الهجرية : « وفيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمي ، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبي أمية جزيرة (أرواد) قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، وكان معهم مجاهد بن جبر فلما مات معاوية وولى ابنه يزيد أمرهم بالعود فعادوا قرب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، انظر ابن الأثير (٤٩٧/٣) ، ومما يفهم منه أن المراد بجزيرة أرواد هي جزيرة كزيكوس .

(٣) النجوم الزاهرة(٢٣٥/١) وابن خلدون(١٥٥/٣) والبداية والنهاية (١٦٩/٩) وأبو الفدا (٢٠٠/١) وانظر الطبري (٥٢٣/٦)

(٤) ولهاوزن — الدولة العربية وسقوطها (٢٠٩) ، والواقع ان المسلمين كانوا يستهدفون فتح القسطنطينية فقد ذكر(فازلييف) في تاريخه الكبير للدولة البيزنطية ، « أن العرب بعد أن أخفقوا في الاستيلاء على القسطنطينية سنة (٦٧٠ م) في عهد قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) بسبب استعمال الروم للنار الاغريقية التي اخترعها إذ ذاك رجل سوري يدعى (جالينيكوس) ظلوا يترددون على القسطنطينية كل عام حتى سنة (٦٧٧م) ، وقد منى الأسطول العربي بكارثة كبيرة ، اذ هبت عليه عاصفة عنيفة ، فتحطمت معظم سفنه على الشاطئ الشمالي لآسيا الصغرى » . وفي نفس الوقت اخفقت كل المحاولات البرية التي قام بها العرب إذ ذاك ، فاضطر الخليفة الى استرجاع جنده =

وكان حرص سليمان على فتح القسطنطينية عظيماً، حتى كأنه لم يتول الملك أو لم يخلق . إلا لتحقيق هذا الحلم الذي راود الخلفاء من قبله من أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أيامه. والواقع هو أنّ الخلفاء جميعاً الذين واتتهم ظروفهم الداخلية والخارجية فكروا في فتح القسطنطينية ، والسبب أن البيزنطيين لم ينسوا أبداً البلاد الشاسعة الغنية التي كانت تابعة لهم وفتحها المسلمون ، وأنهم بذلوا قصارى جهدهم لاستردادها، وأن هذه البلاد لا تكون آمنة من غزو الروم واستردادها ما بقيت للروم دولة عاصمتها القسطنطينية ، وهي البلدة الحصينة التي يسهل الدفاع عنها براً وبحراً

وكانت الخطة السّوْقية (١) للمسلمين تتلخّص في مهاجمة الروم في عقر دارهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع .

وامضى سليمان سنة سبع وتسعين الهجرية في اعداد قواته الضاربة مادياً ومعنوياً لتكون قادرة على النهوض بواجب فتح القسطنطينية (٢) .

واستشار سليمان القادة المجربين، ومنهم موسى بن نُصَير اللّخمي (٣) بالخطة المناسبة لفتح القسطنطينية، فأشار عليه موسى بأن يفتح مادونها من المدن والرساتيق(٤) والحصون ، حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا قد هدمت حصونها ، ووهنت قوتها، وقال موسى : « فاذا فعلت ذلك، لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد » (٥) .

= وعقد معاهدة مع الدولة البيزنطية تعهدت الدولة بمقتضاها أن تدفع له ضريبة سنوية » . انظر : (Vasiliev: Hist, de L'E mpire Byzntin, I,pp, 283 - 284)

(١) الاستراتيجية (Strategy) ، انظر المعجم العسكري الموحد (٨٤٢) – انكليزي – عربي .

(٢) ورد في تاريخ : العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٤) : « وقيل : إن سليمان لما ولي الخلافة حدثه جماعة من العلماء ، أن الخليفة الذي يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبي ، ولم يكن من ملوك بني أمية من اسمه اسم نبي غيره ، فطمع فيها ، فاستعد لذلك ، ولم يشك أنه الذي يلي ذلك » ، وليس لذلك سند تاريخي أو علمي ، وقد حاصر القسطنطينية قبل أيام سليمان المسلمون في عهد عثمان بن عفان ومعاوية بن أبي سفيان ، واسماهما ليسا اسم نبي ! ! .

(٣) انظر سيرته في : قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١ – ٣٠٩) .

(٤) الرساتيق : جمع رستاق ، وهي كلمة فارسية ، وهو كل موضع فيه مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٧ – ٣٨) .

(٥) انظر البداية والنهاية (٩/١٧٤ – ١٧٥) .

ثم استشار أخاه مسلمة : فأشار عليه بأن يدع مادونها من البلاد ويفتحها عَنْوة فمتى ما فتحت فان باقي ما دونها من البلاد والحصون تصبح بيد المسلمين، فقال سليمان : « هذا هو الرأي » (١) .

وأمضى الخليفة سليمان بن عبدالملك سنة يعمل بكل جد ونشاط وعزم لانجاز استحضارات قواته ، وكان الخليفة حين يعتزم أمراً خطيراً له ما بعده في مجال الاعداد العسكري تطبيقاً لخطة سَوْقيّة حاسمة، يكتب إلى أمرائه على الأمصار ليعد كل أمير أو وال الجيش المناسب للعمل العسكري المناسب ، وهذا مافعله سليمان سنة سبع وثمانين الهجرية ، واتخذ من مدينة (دَابِق) (٢) بعيداً عن عاصمته (دمشق) مقراً له ، لئلا يشغل بأمور الدولة الأخرى، وليكون كل وقته من أجل إعداد القوات العسكرية القادرة على الفتح ، إذ تفرّغ لهذا الهدف الحيوي تفرغاً كاملا ، وبذل كل طاقاته المادية والمعنوية لتحقيقه .

وحَسْب سليمان أنه قضى مدة خلافته بـ (دابق) ، من أجل انجاز استحضارات قوات فتح القسطنطينية قبل الحملة ، ومن أجل الاشراف على سير القتال في أثنائها حتى توفاه الله هناك ، فدفن فيها شهيداً بحق ، من شهداء فتح عاصمة الروم .

لم يبق أمام سليمان بعد اكمال استحضارات قواته وحشدها غير اختيار القائد المناسب لمثل هذه المهمة الحيوية ، فاختار أخاه مسلمة .

ففي سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م — ٧١٧ م) ولّى سليمان أخاه مسلمة قائداً عاماً للقوات الغازية للقسطنطينية (٣) ، فسار مسلمة على رأس جيشه اللّجب

---

(١) انظر البداية والنهاية (١٧٥/٩) ، العنوة : أخذ الشيء بالغلبة ، وهو ضد الصلح ، انظر معجم البلدان (٤٠/١) .

(٢) دابق : قرية بقرب حلب من اعمال (عزاز) ، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب كان ينزله بنو مروان ، إذا غزوا الصائفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤)

(٣) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) وابو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١) وابن خلدون (١٥٥/٣) مختصر تاريخ الدول لابن العبري (١١٤) ، وفي تاريخ الاسلام للذهبي (٣٠٢/٤) : « قال زيد بن الحباب : أنبأ الوليد بن المغيرة عن عبيدالله ابن بشر الغنوي عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الامير أميرها) ، قال : فدعاني مسلمة فحدثته بهذا الحديث ، فغزاهم » ، رواه أبو كريب واحمد بن الفرات عن زيد .

المؤلف من مائة وعشرين ألفاً (١) في رواية ، ومن مائة وعشرين ألفاً في البر ومائة وعشرين ألفاً في البحر (٢) يؤيد ذلك المصادر غير العربية (٣) ، وأرجح الرواية الاولى ، لصعوبة حشد مثل هذه القوات الجسيمة بالنسبة لذلك الوقت في جبهة واحدة ، كما أنّ المصادر الأجنبية تبالغ تعداد قوات المسلمين — خاصة البحرية منها — لتبرز أهمية النصر على تلك القوات وردها خائبة عن القسطنطينية دون أن تحقق أهدافها المرسومة .

لقد زعمت بعض تلك المصادر الأجنبية ، أن المسلمين حملوا قواتهم البحرية التي تعدادها مائة وعشرون الف مقاتل على ألف وثمانمائة سفينة (٤) ، وهذا ما لايتيسر للمسلمين حينذاك .

ومع هذا ، فقد كان جيش مسلمة المؤلف من مائة وعشرين ألفاً ، برياً في اكثره وبحرياً منقولاً بالسفن في أقله ، حتى يستطيع فرض الحصار براً وبحراً في آن واحد ، كما سنجد ذلك في خطة مسلمة في الحصار حسب مجرى الحوادث للمعركة .

وكانت مدينة (دابق) هي القاعدة المتقدمة لحشد جيش مسلمة ، فقد سار مسلمة حتى نزل (دابق) وجاءته الأجناد من كل ناحية (٥) : من الشام والجزيرة (٦) ، فسار إلى أرض الروم وانضم إليه فيها جيش المسلمين الذين كانوا هناك (٧) ، وسلك طريق (مَرْعَش) (٨) فافتتح مدينة (الصَّقَالِبَة) (٩) . وهجم الشتاء ،

---

(١) دول الاسلام (٥٨/١) ومختصر تاريخ الدول (١١٥) والبدء والتاريخ (٤٣/٦) .

(٢) البداية والنهاية (١٧٥/٩) وانظر خطط الشام (١٢٣/١) .

(٣) فتح القسطنطينية (٣٨) : « تعلم المسلمون من حصارهم تجربة الحصار الأول ، أن ليس في استطاعتهم خرق الاسوار المنيعة ، لذلك بنوا خطتهم هذه المرة على إنزال بحري ، ويقال : إنهم أعدوا لذلك ألفاً وثمانمائة سفينة تنقل مائة وعشرين الف محارب جاهزين للانزال

(٤) فتح القسطنطينية (٣٨) . (٥) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥) .

(٦) البداية والنهاية (١٧٥/٩) . (٧) البداية والنهاية (١٧٤/٩) .

(٨) مرعش : مدينة الثغور بين الشام وبلاد الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥/٨) وهي مدينة صغيرة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٢) بينها وبين مدينة (الحدث) وهي من الثغور خمسة فراسخ ، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦) .

(٩) الصقالبة : جيل حمر الألوان صهب الشعور يتاخمون بلاد الخزر في أعالي جبال الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٢/٥) والقاموس المحيط (٩٣/١) ولسان العرب (١٤/٢) ، وهم السلاف (Slaves) أو الجنس السلافي ، وجبال الروم هي : جبال طوروس ، ومدينة الصقالبة : مدينة تقع بين (دابق) و (عمورية) في جبال طوروس .

فانحرف مسلمة بجيشه إلى مدينة (أفْيق)(١) وشتى بها ، وهي ليست القرية من (حوران) في طريق (الغور) وهو غور (الأرْدُن) المعروف ، إذ ليس من المعقول أن يعود إلى (الأردن) ليقضي الشتاء فيه ، والظاهر أن (أفيق) تقع في منطقة (عمورية) في السهل الواقع شمالي جبال (طوروس) ، وهذا السهل أقل برداً في الشتاء من جبال (طوروس) التي تغطيها الثلوج شتاءاً وفي اكثر شهور الربيع أيضاً .

ولما خرج الشتاء ، سار مسلمة إلى (القسطنطينية) حتى نزل (عمورية) ، وبطريقها (٢) (لِيُون) بن قُسْطَنْطين المَرْعشي ، فوادعه مسلمة وأعطاه رَهْناً وأخذ منه مثل ذلك ، على أن يناصحه ويظاهره على أهل (القسطنطينية) ويكون عوناً له ، وملك القسطنطينية يومئذ (تيودوس) وهو (ثيودوسيوس الثالث) الذي حكم من سنة ٧١٥م الى ٧١٧م وهو من أسرة (هِرَقل) (٣) .

وكان (ليون) أو (ليو) هذا ، نصرانياً من سكان مدينة (مَرْعش) وله بهـا كنيسة مشهورة تنسب إليه ، أتى القسطنطينية في أيام الفتن التي كانت بها ، فصار مشهوراً ببيع الخمر ، وكان فصيحاً بالعربية والروميّة . ثم إنه انخرط في سلك الجندية وشهد المعارك الدائرة بين المسلمين والروم وأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة ، فقدمه الروم ، ولم يزل ينتقل في المنزلة الى أن صار (بطريق) مدينة (عموريّة) وقيل : إنه لما جاء إلى (عموريّة) بكتاب الملك على أنه (بطريق) ردّوه وقالوا له : مثلك لا يلينا ، لأنك نبطي من أنباط العرب . فقال لهم : « إني لا أتولى عليكم إلا بأمركم ، وقد بلغكم حالي ورُجلتي وغَنائي ، وحالكم مختلط ، ومُلككم مضطرب ، والفتن كثيرة ، وهذا مسلمة بن عبدالملك قد شارف بلادكم ، وهو يُوقِع بكم ، فأدخلوني وفوّضوا اليّ أمركم ، فان قمتُ فيه كما تُؤثِرون وإلا فأخْرجوني واصنعوا بي ما أردتم » . فقالوا صدق : فأدخلوه إليهم وولّوه أمرهم ، فنزل به مسلمة وهو يريد (القسطنطينية) (٤) .

---

(١) أفيق : قرية من حوران في طريق الغور (الا ردن) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٧/١)

(٢) البطريق : رتبة عسكرية في جيش الروم ، وهو قائد فرقة ، والفرقة في جيش الروم تتألف من عشرة آلاف رجل بقيادة بطريق ، ويشابه البطريق في التنظيم الحديث قائد فرقة . برتبة لواء ، انظر عقبة بن نافع الفهري (٥٨) – الطبعة الرابعة .

(٣) انظر : الامبراطورية البيزنطية (٤٠١ – ٤٠٣) .

(٤) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٣٦ – ٣٧) ، انظر : سنى ملوك الارض والانبياء (٦٩)

ولا تختلف هذه الرواية العربية كثيراً عن الرواية الأجنبية التي جاء فيها : أن (ليو) نشأ فلاحاً ثم اصبح جندياً مرتزقاً ، وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال ، حتى توصل إلى القمّة بفضل مقدرته وحدها ، وكان ما يزال شاباً (١) .

ولكن كيف اتصل مسلمة بليون ، هل اتصل به مباشرة كما ذكرنا ، باعتبار أنّ مسلمة كان قد فتح (عموريّة) سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨م) فهو يعرف مداخلها ومخارجها وأهلها (٢) ؟

هنالك رواية تذكر : أنّ (ليون) أتى الخليفة سليمان بن عبدالملك من(أذْرَبِيْجَان) وضمن له فتح الروم ، فوجّه مسلمة معه ، فسارا إلى (القسطنطينية) (٣)

وأرجح أنّ مسلمة اتصل مباشرة بليون ، الذي كان المسؤول عن المنطقة الأمامية للدفاع عن (القسطنطينية) بصفته بطريق (عموريّة) ، لذلك لم يذكر المؤرخون أنّ مسلمة صادف مقاومة تذكر في صفحة مسير الاقتراب أثناء تقدمه من (عموريّة) حتى (القسطنطينية) ، مما يدل على نجاح مسلمة في استمالة (ليون) إلى جانبه ومن الواضح أنّ (ليون) كان طموحاً جداً ، وكان يتطلّع إلى أن يكون امبرطورا الروم ، فوادع مسلمة كمرحلة لتولي السلطة تحقيقاً لمطامعه – خاصة بعد وفاة امبراطور الروم السابق (ثيودوسيوس الثالث) آخر اباطرة أسرة (هرقل) .

واستصحب مسلمة (ليون) ليدله على الطريق والعورات ، واخذ عهوده ومواثيقه على الوفاء والمناصحة (٤) ، وكان (ثيودوسيوس) ضعيف الرأي ، سيئ التدبير عاجزاً فيما تقلده من أمر الروم ، وكان أمر الروم مضطرباً وأيامهم أيام هرج ومرج (٥) .

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ – ٣٩) ، وفي تاريخ خليفة بن خياط (٣٢١/١) : أن مسلمة شتى بضواحي الروم .

(٢) جاء في البداية والنهاية (١٧٤/٩) : « ثم ان مسلمة داخل رجلا من النصارى يقال له : إليون وواطأه في الباطن ليأخذ له بلاد الروم » ، وانظر أيضاً البدء والتاريخ (٤٣/٦ – ٤٤) .

(٣) ابن الأثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) وانظر الطبري (٥٣١/٦) الذي ذكر أن (ليون) قدم من (إرمينية) .

(٤) البدء والتاريخ (٤٤/٦) .

(٥) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٣٦)

أما جيش المسلمين بقيادة مسلمة ، فقد كان موضع اهتمام الخليفة سليمان بن عبدالملك . أخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو (القسطنطينية) والاقامة إلى أن يفتحوها ثم سار سليمان من (بيت المقدس) الى (دمشق) وقد اجتمعت له العساكر ، فأمّر عليهم أخاه مسلمة ثم قال : « سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف » . ثم سار سليمان حتى نزل (مُرْج دابِق) ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة والمحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم يُرَ مثله (١) .

وانطلق مسلمة بهذا الجيش ، فلما دنا من (القسطنطينية) ، أمر كل فارس أن يحمل معه مُدّيْن (٢) من طعام إلى عجز فرسه إلى (القسطنطينية) ففعلوا ، فلما أتاها أمر بالطعام فألقى أمثال الجبال ، وقال مسلمة للمسلمين : « لا تأكلوا منه شيئاً ، واغيروا في ارضهم وازرعوا » ، وعمل بيوتاً من خشب ، فشتى فيها وصاف ، وزرع الناس وبقي الطعام في الصحراء ، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات ومن الزّرع (٣) .

هكذا كان جيش مسلمة من الناحية الادارية منظماً تنظيماً جيداً ، وكانت خطته الادارية خطة جيدة أيضاً ، وللخطة الادارية الجيدة أثر بالغ في احراز النصر ، لأن الجندي يمشي على بطنه كما يقول المثل العسكريّ المشهور .

ولكنّ أرزاق جيش مسلمة لم تقتصر على ذلك ، بل جاءته العُلُوفَة والأطعمة

---

(١) البداية والنهاية (١٧٥/٩)

(٢) المد : من المكاييل الاسلامية ، يختلف من قطر اسلامي الى اخر ، والمد السوري يساوي (٢٫٨٤) كغم ، انظر التفاصيل في هنز (Walther Hinz) – المكاييل والاوزان الاسلامية (٧٤ – ٧٧) – منشورات الجامعة الأردنية – ترجمة الدكتور كامل العسلي – عمان – ١٩٧٠ وانظر ترتيب القاموس المحيط (١٩٢/٤) ومعجم متن اللغة (٢٦/٥) ، وتنفيذاً لأمر مسلمة يحمل كل فارس مدين ، أي يحمل ما يساوي (٦٨٫٥) كغم ، وحمل مثل هذه الكمية القليلة غير معقول ولا يؤدي الى الغرض المطلوب ، وهو تكديس كميات من الطعام لغرض حصار طويل وارى أن مسلمة في قوله : يحمل كل فارس مدين ، لا يريد المعنى الحرفي ، بل يريد : أن يحمل كل فارس ما يستطيع من ارزاق ، والمقدار الذي يحمله الفارس هو عشرون كيلوغراماً كمعدل ، وهذا نتيجة لخبرتي الشخصية باعتباري ضابطاً في صنف الخيالة (سلاح الفرسان) .

(٣) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) ، وفي التنبيه والاشراف (٢٩٠): وكان مسلمة بن عبدالملك لما بنى مدينته التي على خليج القسطنطينية كما سماها : مدينة (القهر) .

ونقلت إليه من الضواحي ومن رساتيق الروم وجاءته في المراكب (١) ؛ كما حشد لجيشه السلاح ، فجمع آلات الحرب للصيف والشتاء والمجانيق والنفط وغير ذلك(٢) وهكذا استكمل مسلمة قضاياه الادارية تسليحاً وتجهيزاً وارزاقاً وعلفاً وإسكاناً ، فأعدّ بخطته الادارية هذه متطلبّات النصر إدارياً .

تلك هي مجمل خطة مسلمة الادارية ، فما هي خطته العسكرية في الحصار ؟

تحتل مدينة (القسطنطينية) موقعاً سَوْقياً (استراتيجياً) فريداً ، حبته الطبيعة بأهم عوامل الدفاع الطبيعية التي تساعد المدافعين عنها على الثبات . تحوطها من الشرق مياه البسفور ، وتحـــدها من الغرب والجنوب مياه (المرمرة) ،ويقسمها (القرن الذهبي)الى قسمين عظيمين هما ؛ (بيرا) وهو القسم الشمالي الشرقي ، و (إستانبول) (٣) وهو المدينة البيزنطية الحقيقية . وتحتل (استانبول) مثلثاً عظيماً المرتفعات الصخريّة ، تشرف قاعدته على (المرمرة) وضلعه الأيمن على ميـــاه (القرن الذهبي) والميناء ، وكان كل من هذين الجانبين يحرسها سور واحد . أما الضلع الثالث وطوله ستة أميال ، فهو الجانب المتّصل بالقارة الأوروبية ، يحميه خط مزدوج من الأبراج والحصون المنيعة ، وخندق واحد مزدوج ، وفيه عدة أبواب ، وفي كل زاوية من زوايا المثلّث الثلاث قلعة منيعة ، وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي ، تغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور (غَلَطة) وسور (إستانبول) .

وهكذا تهيأت أسباب الدفاع المديد لهذه المدينة : أسباب طبيعية ، واسباب صناعية ، مما جعلها موقعاً حصيناً وقلعة آمنة ،من الصعب على الغزاة احتلالها (٤) .

---

(١) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٤) .

(٢) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٦) .

(٣)استانبول : يسمى المسلمون(Constan Tinople) بالقسطنطينية ،أما فيما يتصل باسمها البيزنطي الذي يقال إن منه اشتق لفظ (استانبول) وهو الاسم التركي الحديث ، فان المسعودي في النصف الأول من المئة الرابعة الهجرية والعاشرة الميلادية كتب في كتابه : (التنبيه) ص ١٣٨ الروم في أيامه كانوا يسمون عاصمتهم : (بولن) – Polin أي Bulin ومعناها : المدينة : واذا ارادوا عنها أنها دار الملك لعظمها قالوا : (استن بولن) ، ولا يدعونها القسطنطينية ، وانما المسلمون تعبر عنها بذلك » ، واستن معناها : دار الملك أو العاصمة ، واستن بولن معناها مدينة دار الملك ، المدينة العاصمة . و(استن بولن) هي : (استانبول) .

(٤) بين العقيدة والقيادة (٣٥٥ – ٣٥٦) وانظر مواقف حاسمة (١٧٥) .

وكان بنو أميّة دولة وجيشاً ، يهتمون كثيراً بجمع المعلومات المفصلة الدقيقة عن اعدائهم ، وكانت وسائلهم واساليبهم للحصول على هذه المعلومات كثيرة ومتعددة ، كالعيون والأسرى والتجار والمرابطين والمجاهدين ونحوهـــم ، فكانت القيادتان السياسية والعسكرية لبني أميّة في الشّام تعمل لتحقيق أهدافها الحيوية وهي على بصيرة من أمرها ، فهي تعمل مفتوحة العينين في النور لا مغمضة العينين في الظلام

لقد كانت مخابرات المسلمين تعرف كل شيء عن الروم : قواتهم ، قياداتها ، تنظيمها ، تسليحها ، تدريبها ، ما تعانيه من ثغرات ، طبيعة بلادها ، مواردهـــا التموينية ، مشاكلها الداخلية والخارجية ، وغيرها من المعلومات المفصّلة الدقيقة .

جعل مسلمة من (عمورية) قاعدة متقدّمة ، واتّجه شمالاً نحو (القسطنطينية) فلاقى مقاومة في طريقه (١) تغلّب عليها ، حتى وصل إلى (الخليج) وهو المضيق الذي يصل بين بحر (بُنْطُس) (٢) ، وهو البحر الذي نطلق عليه اليوم (البحر الاسود) وبين (القسطنطينية) والبحر الابيض المتوسط ، فقطع (الخليج) حتى نزل (القسطنطينية) ، وعبر من موضع يقال له (أبِدُس) (٣) ، يكون عرض (الخليج) هناك غَلْوَة(٤)سهم ـــمقدار ثلاث مئة ذراع الى أربع مئة ـــوهو الخليج الذي يدعى بحر (بُنْطُس) يقبل من (إرْمِيْنِيّة) ، حتى إذا صار إلى (القسطنطينية) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً ، فاذا بلغ (أبِدُس)ضاق حتى يصير مقدار غلوة بين حبلين وبين (أبدُس) والقسطنطينية مئة (الميل العربي = كيلو متران) (٥) في مستوى من الارض وسهولة (٦) .

---

(١) انظر(M-A Cheira- (La Lutte Entra Arabes Et Byzantins (١٨٠ – ١٨١) وفيه : قامت الحملة باعمال ضد نيقيا وبرغر وساردوس .

(٢) بحر بنطس : بحر يعرف بهذا الاسم عند اليونانيين ، وهو البحر الذي يتفرع منه خليج القسطنطينية أوله في أطراف بلاد الترك في الشمال ويمتد الى ناحية المغرب والجنوب حتى يتصل ببحر الشام ، وقبل اتصاله ببحر الشام يسمى : بنطس ، انظر معجم البلدان (٦٦/٢) و (٢٩٣/٢) ، وهو البحر الاسود .

(٣) لم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية العربية القديمة التي بين ايدينا ، والموجود هو (اندس : مدينة على غرب خليج القسطنطينية .

(٤) الغلوة : مقدار رمية سهم ، وتقدر بثلاث مئة ذراع الى اربع مئة .

(٥) الميل : أربعة آلاف ذراع شرعي ، انظر معجم البلدان (٣٥/١) وهو كيلو متران ، انظر المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري (٩٥) .

(٦) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٦) وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .

ومن الواضح أنّ مسلمة عبر من غرب القسطنطينية ، فمدينة (أبِدُس) تقع بعد القسطنطينية بالنسبة للبحر الاسود استناداً الى نص ما جاء عن العبور : « حتى إذا صار إلى القسطنطينية (يريد البحر الأسود) افترق من وجهين : شمالاً وشرقاً، فاذا بلغ (أبِدُس) ضاق . . . الخ » ، فهو — أي مسلمة قد عبر من المضيق الغربي للقسطنطينية كما أنه لا مضايق شمال هذه المدينة يمكن عبورها بسهولة ويسر . ثم إنّ (أبِدُس) التي ورد ذكرها في هذا النص هي مدينة (أنْدُس) ، وهي مدينة على غربي خليج القسطنطينية بين جبلين ، بينهما وبين القسطنطينية ميل في مستوى من الأرض (١) .

ولا أتصور أنّ هناك مسوّغاً لعبور مسلمة على بعد مئتي كيلومتر (مئة ميل عربي) من القسطنيطينية ، فهذه مسافة شاسعة جداً من ناحية ، ولا وجود لمضيق على بعد مئتي كيلومتر من القسطنطينية شمالاً أو جنوباً يمكن عبوره بجيش ضخم مع تجهيزاته العسكرية ووسائل تنقله البرية ومواده الاعاشية ونحوها ، والظاهر أنه عبر من مسافة ميل واحد عربي (كيلومترين) من غرب القسطنطينية . لانه عبر من (أندُس) وهذه المسافة مناسبة حقاً ، والموقع بين جبلين يخفي العبور عن رصد العدو ، وقد استفاد مسلمة من السفن التي رافقت حملته في العبور ، والظاهر أنه لم يلق مقاومة تذكر في عبوره .

وبذلك أنهى مسلمة مرحلة (مسير الاقتراب) (٢) من خطته التي رسمها لفتح القسطنطينية ، وبدأ مرحلة جديدة ، هي مرحلة : فرض الحصار في سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب — أغسطس ٧١٦م) (٣) .

طوق مسلمة بقواته البرية والبحرية مدينة (القسطنطينية) ، فقد طوّقت قواته البرية هذه المدينة بالقرب من الخندق الذي يحيطها من جوانبها البريّة يجري الماء فيه (٤) . كما سدّت هذه القوات المنافذ البحرية من الشمال ، بوضع مراكز مراقبة

---

(١) انظر معجم البلدان (١/٣٤٧) ، ومن المحتمل أن تكون مدينة (ابدس) قد حرفت الى (أندس)

(٢) مسير الاقتراب : تقدم الجيش من قواعده الرئيسة أو قواعده الامامية أو المتقدمة الى ساحة القتال حتى التماس بالعدو .

(٣) La Lutte entre arabes E7 Byzantin.s)
انظر التفاصيل (١٨٠ — ١٨٥)

(٤) العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٧) .

بريّة قوية على الساحل مزوّدة بالمنجنيقات ، ومن المحتمل جداً أن تستفيد هذه المراكز من السفن المحلية التي يعمل فيها المسلمون أو المرتزقة للمعاونة في سد المنافذ البحرية للقسطنطينية من الشمال ، ولكن هذه المراكز لم تكن كافية ، وهي ثغرة في خطة الحصار ، لأنّ تلك المنافذ البحرية يجب أن تغطّى بمراكز مراقبة بحريـــة قويـّة لا مراكز بريـّة قويـّة وقوات بحرية غير كافية .

أما البحرية الاسلامية التي جاءت من سورية ومصر ، فقد قاتلت أسطول الروم في (رودس) وأسرت بعض سفنه ودمّرت أخرى ، وكان بحّارة الأسطول الرومي في عصيان حينذاك ، ينقصهم الضبط والنظام ، كما هاجمت البحرية الاسلامية سواحل آسيا الصغرى حتى وصلت إلى قرب القسطنطينية ، فسدّت المنافذ البحرية لهذه المدينة استكمالاً لخطة تطويقها .

وعند حلول موسم الشتاء أمر مسلمة أن يبني رجاله بيوتاً من الخشب (١) ، لتقيهم المطر والثلج والبرد ، وأمر الناس بالزراعة ، فصاف وشتى وهم يأكلون من زراعتهم وطعامهم الذي استاقوه مُدّخَراً .(٢)

وكان هدف مسلمة من خطته الادارية وخطة العمليات ، هو ما ذكره علناً لرجاله : « إنالا نرجع عن هذا البلد إلاّ أن نفتحها إن شاء الله » (٣) ، وكان سبيله لتحقيق هدفه : فرض الحصار المديد ، لكي يستسلم المحاصَرون جوعاً .

ومنذ فرض الحصار على القسطنطينية حتى انسحب المسلمون إلى قواعدهم ، جرت حوادث القتال في صفحات ثلاث .

الصفحة الاولى من تاريخ فرض الحصار في اواخر صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (١٥ آب — أغسطس ٧١٦م) حتى تولى ليون الثالث عرش القسطنطينية في سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ — مارت — مارس — ٧١٧م) (٤) ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم : صفحة (المبادرة) .

وبالرغم من أنّ المصادر الجغرافية العربية وغير العربية لا تذكر معلومات وافية عن اعمال الجيوش الاسلامية والرومية ، إلا أننا نستطيع أن نذكر أنّ مسلمة في هذه الصفحة هاجم أسوار القسطنطينية مرتين : الأولى بحشد أربعة آلاف مقاتل ، وكان اتجاه

---

(١) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الا ثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) والبداية والنهاية (١٧٤/٩)
(٢) ابن خلدون (١٥٥/٣) وانظر الطبري (٥٣٠/٦) وابن الاثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) (٣) البداية والنهاية (١٧٤/٩) . (٤) البحر الزاخر (٣٦٧/٢) .

هجومه منطقة (باب الذهب) ، والثانية بحشد ثلاثة آلاف مقاتل ، ولكنه لم ينجح في هذين الهجومين (١) .

واستطاع المسلمون أن يؤثروا في الروم المحاصرين تأثيراً شديداً ، فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً ليرحل عنهم ، فلم يقبل مسلمة (٢) بهذا العرض ، واصر على فتح المدينة .

وأقام مسلمة محاصراً القسطنطينية قاهراً لأهلها (٣) ، مانعاً لهم من كل مرفق براً وبحراً (٤) ،وكان معتمداً على جيش المسلمين وعلى جماعة من الروم على رأسهم ليون ، الذي عاون مسلمة في هذه الصفحة حتى استحوذ على ثقته التامة .

وبعث مسلمة ليون إلى أهل القسطنطينية في رسالة ، فلما دخل عليهم ليون قالوا له : ردّه عنا ونحن نملكك علينا (٥) ، فاستوثق منهم وتولى عرشهم (٦) ، وبذلك تكللت جهود ليون التي بذلها لتولي العرش بالنجاح .

---

(١) La Lutte entre arabes Et Byzantine
انظر التفاصيل في (١٨٠ – ١٨٥) .

(٢) ابن الاثير (٢٧/٥) وابن خلدون (١٥٩/٣) .

(٣) الطبري (٥٣٠/٦) . (٤) العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٧) . .

(٥) البداية والنهاية (١٧٤/٩) وفي ابن الاثير (٢٧/٥) : فقالت الروم لليون : إن صرفت عنا المسلمين ملكناك .

(٦) ابن الاثير (٢٧/٥) والبدء والتاريخ (٤٤/٦) ، وقد جاء في ابن الأثير (٢٧/٥) ؛ اتى ليون مسلمة فقال له : « إن الروم قد علموا أنك لا تصدقهم القتال ، وانك تطاولهم ما دام الطعام عندك ، فلو أحرقته أعطوا الطاعة بايديهم » ، فامر به فاحرق فقوي الروم وضاق المسلمون حتى كادوا يهلكون . وقيل : إنما خدع ليون مسلمة بأن يسأل أن يدخل الطعام الى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوه بأن أمره وامر مسلمة واحد ، وانهم في امان من السبي والخروج من بلادهم ، فأذن له ، وكان ليون قد أعد السفن والرجال ، فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا في تلك الحظائر إلا ما لا يذكر ، واصبح ليون محارباً ، وقد خدع خديعة لو كانت امرأة لعيبت بها . وفي ابن خلدون (١٥٥/٣) : قال ليون لمسلمة : « لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنك قصدتهم بالقتال ، فتأخذهم باليد ، وهم الا ن يظنون مع بقاء الزرع أنك تطاولهم » ، فأحرق الزرع ، فقوى الروم ، وغدر ليون ، فاصبح محارباً ، وجاء في الطبري (٥٣١/٦) ما جاء في ابن الأثير (٢٧/٥ – ٢٨) ، ومن المعلوم أن ابن الأثير نقل نص ما جاء في الطبري . وفي البداية والنهاية (١٧٤/٩) : قال ليون لمسلمة : « إنهم – أي أهل القسطنطينية – ما داموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم في القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البلد سريعاً » ، فامر مسلمة بالطعام فاحرق ، ثم انشمر ليون بالسفن ، فأخذ ما أمكنه من أمتعة الجيش في الليل ، واصبح في البلد وهو محارب المسلمين . –

لقد كان بامكان مسلمة أن يحقق إنجازات عسكرية في هذه الصفحة أكثر مما حققه عملياً فيها ، لولا ثقته بليون الذي منّاه بفتح القسطنطينية بالمكر والخداع فاستنام مسلمة لتلك الأمانيّ العِذاب ، واخيراً ظهر له أنّ ليون لم يكن حرياً بكل هذه الثقة ، وهو يعمل لنفسه مسخراً مسلمة لتحقيق مصالحه الذاتية .

والمهم هو أن نذكر أنّ قسماً من المؤرخين صوروا أن مسلمة كان ضحية لمكيدة من مكايد ليون جعلته يحرق اكداس الأرزاق والعلف لجيش المسلمين ، وهذه مكيدة لا يقع بها عاقل كمسلمة ، بل لا يقع بها اي عاقل ، كما أنّ اختلاف الروايات لمختلف المؤرخين ، يؤدي الى زعزعة الثقة بتلك الروايات ، هذا بالاضافة إلى أنها روايات متهافتة لا يصدقها عاقل . فهي أقرب إلى حكايات الأخبار بين الاخباريين منها إلى حقائق المؤرخين .

ولعل مصدر تلك الروايات أعداء الأمويين ، وما أكثرهم عدداً وما أشد عداوتهم واعظمهم لددا . تلك هي الصفحة الأولى من صفحات حصار القسطنطينية وهي صفحة (المبادرة) ، وهي المبادرة التي لم يستفد منها مسلمة كما ينبغي ، لتحقيق نصر عسكري وسياسي للمسلمين ،

– وفي البدء والتاريخ (٥/٤٤) : قال ليون لمسلمة : « لا يفتحون ما لم يتنح عنهم » ، فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق ، فدخل ليون ولبس التاج وقعد على سرير الملك وأمر بنقل الطعام والعلوفات من خارج ، فملأوا الأهراء وشحنوا المطامير . وفي العيون والحدائق في اخبار الحقائق (٢٨) : أن مسلمة أرسل ليون مع جماعة من أهل ثقاته الى أهل القسطنطينية يقول لهم ؛ لست أرحل عنكم حتى تملكوا مولاي ليون ويسلم اليه ملككم ثم أرحل عنكم وادعكم وبلادكم ودينكم وكنائسكم . . .

وارى أن هذه أشبه بالاساطير منها بالحقائق التاريخية ، فليس هناك قائد يحرق مواد جيشه الغذائية ، وليس هناك قائد يفسح المجال لعدوه بأخذ مواد جيشه التموينية ، وليس هناك قائد يتخلى عن الحصار ويذهب بعيداً تاركاً غلات جيشه نهباً للعدو كما أن الحجج التي قدمها ليون لمسلمة لا تقنع عاقلا ، إذ كيف يستسلم العدو لجيش اذا أحرقت المواد التموينية لذلك الجيش ، بينما المعقول أن يستسلم العدو إذا وجد خصمه قد كدس الارزاق الكافية لادامة حصار طويل ، وكل محاصر يستسلم غالباً من الجوع ، ولا نعرف أحداً استسلم من الشبع ! ! وليس إجماع المؤرخين حجة دامغة على صحتها ، فالخلف ينقل عن السلف ، وقد اتهم بنو امية بكثير من التهم – خاصة وان تاريخهم سجل بعد زوال ملكهم وتولى أعدائهم من بعدهم ، فلا يستبعد أن يفتري مفتر ، فيروي ما سمعه المؤرخ ، فيأتي من بعده فينقلون تلك الفرية . ، وقد كان مسلمة معروفاً بالدهاء ، فكيف تجوز عليه خدعة لا تجوز على أي إنسان حتى لو كان من أغبى الاغبياء !

أما الصفحة الثانية فتبدأ بتولي (ليون الثالث) (١)عرش القسطنطينية في سنة ثمان وتسعين الهجرية (٢٥ مارت — مارس — ٧١٧م) إلى حلول شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (كانون الأول — ديسمبر ٧١٧ م) ، ويمكن أن نطلق على هذه الصفحة اسم : صفحة (المصابرة) .

(١) ليون الثالث : ليون المرعشي ، انظر البدء والتاريخ (٦/ ٤٣ — ٤٤) وهو ليون بن قسطنطين المرعشي ، انظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥) ، نشأ فلا حاً ثم أصبح جندياً مرتزقاً وتقدم في الجندية لشجاعته في القتال ، ووصل الى القمة بفضل مقدرته وحدها ، وكان ما يزال شاباً ، انظر فتح القسطنطينية (٣٨ — ٣٩) . وفي ٢٥ مارت (مارس) سنة ٧١٧ م جلس ليون الثالث على عرش الامبراطورية البيزنطية الشرقية واسس عائلة جديدة عرفت بالعائلة (الايسوريانية) وكان من أهلها (ايسوريا) واسمه الاصلي كونون ، وقد قدح فيه المؤرخون الذين من عادتهم القدح والذم ، ووصفوه بأنه كان طوافاً على حمار له في الأمصار يبيع الفراخ ، وان أباه هاجر من اسيا الصغرى واقام في نواحي (ثراسة) وعمل في بيع الحشيش . عمل ليون جندياً وترقى بالتدريج واشتهر اسمه وعلا قدره في الحرب ، فعينه نسطاس قائداً للفرق الأنضولية حتى أختير امبراطوراً ، انظر البحر الزاخر (٣٦٧/٣) ، وكان نصرانياً من سكان (مرعش) ، فأتى (القسطنطينية) في أيام الفتن التي كانت بها وصار مشهوراً ببيع الخمر ، وكان فصيحاً بالعربية والرومية ، وقد حضر الحرب الدائرة بين المسلمين والروم ، فأبلى فيها وظهرت له شجاعة حسنة ، فقد موه ولم يزل ينتقل في المنزلة الى ان صار (بطريق) عمورية . وقيل : إنه لما جاء الى عمورية بكتاب الملك على انه (بطريق) ردوه وقالوا له : مثلك لا يلينا ، لا نك نبطي من أنباط العرب . فقال لهم : « إني لا أتولى عليكم الا بأمركم ، وقد بلغكم حالي و رجلتي وغنائي ، وحالكم مختلط ، وملككم مضطرب والفتن كثيرة ، وهذا مسلمة بن عبدالملك شارف بلادكم ، وهو يوقع بكم ، فأدخلوني وفوضوا الي أمركم ، فان قمت به كما تؤثرون ، والا فاخرجوني واصنعوا بي ما اردتم » ، فولوه أمرهم ، أنظر العيون والحدائق في أخبار الحقائق (٢٥ — ٢٦) .

و بدأ سلطنته بالمدافعة والمحافظة الكبيرة على القسطنطينية ، ولما خلص المملكة وانقذها من العرب عكف على إحياء رسومها وتقويتها ، فنتج من ادخال القوانين والانظمة الجديدة فيها عصر جديد في سعادة المملكة وفلا حها ، واستتب السلم والأمن فيها ، وقد حكم البلاد أربعاً وعشرين سنة ، و بعد موته خلفه ابنه قسطنطين الخامس وتولى العرش في (١ حزيران ٧٤١ م) سنة ثلاث وعشرين ومائةالهجرية ، انظر البحر الزاخر (٣٦٧/٣) ، وانظر ايضاً تاريخ سني ملوك الارض والانبياء (٦٩) وابن الأثير (٣٣٥/١) ، وليوالثالث هو (Leo the Isaurian)

وظل المؤرخون يعتبرون اسرة (ليو الثالث) إيسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن في سنة ١٨٩٦ م كتب العالم الالماني (شينك) في مجلة الا بحاث البيزنطية في مؤسس هذه الأسرة ، فجعله سورياً لا إيسورياً ، انظر ما جاء حول ذلك في :

(Schenk, k, kaiser Leones, lll, Byz.›v,296 FF)

ثم جاء بعده من أيده ، انظر :

Jorg,N.,Origines de L'Iconoclasme Bulletin Acad, Roumaine X1.(1924),147.

وجاء بعده من عارضه ، انظر : (Kulakovsky,JA,Hist,of Byzantium,lll'319.)

ومهما اختلفت الروايات في حقيقة علاقة (ليو الثالث) بمسلمة بن عبدالملك والطريقة التي اعتلى بها عرش القسطنطينية وتاريخ حياته قبل اعتلاء العرش وبعده ، إلاّ أنه كان امبراطوراً عظيماً وقائداً متميزاً محنكاً ، وكان حاذقاً في وضع الخطط العسكرية (١) .

فقد قدّر أنّ الروم سيواجهون حصاراً طويلاً ، لذلك بذل جهده في تكديس المواد التموينية ، ولما كان هناك خطر الموت جوعاً عند نجاح الحصار البحري الذي فرضه المسلمون على القسطنطينية ، عمل جهده لتقوية سفنه — وكان عددها قليلا جداً بالنسبـــة لأسطول المسلمين ، فهي ليست قادرة على النهوض بمهاجمة الاسطول الاسلامي ، لذلك أمّن حمايتها بسلسلة حديدية هائلة أقامها لسد مدخل المرفأ ، فمنع أي سفينة قادمة من الخارج من دخوله ، وكانت هذه السلسلة هي : (السد البحري)(٢) الذي تعلّمه منه المدافعون عن القسطنطينية من بعده حتى فتحت على يد محمد الفاتح . وكان لهذا السد دور كبير في الدفاع عن المدينة المحاصرة ، واثر في منع الاسطول الاسلامي من التغلغل في المياه القريبة من هذه المدينة ، وفي حماية السفن البيزنطية التي تجمعت وراءه من غارات أسطول المسلمين .

ولكن تكديس المواد التموينية وإقامة السد البحري ، مع الاحتماء بأسوار حصينة منيعة . والاستفادة من موقع القسطنطينية الحصين المساعد على الدفاع ، غير كافية لترجيح كفّة الروم على المسلمين وأخذ (المبادرة) نهائياً منهم ، لانّ كل هـــذه العوامل — على أهميتها — عوامل دفاعية وليست تعرضيّة ، لذلك ركّز (ليون الثالث) طاقاته لا بتكار سلاح جديد تعرضي ، فتهيأ له سلاح سرى فتّاك هو : (النار

— والسبب في هذا الاختلاف أن (ثيوفانس) المرجع الرئيس في سيرة (ليو) قال عنه إنه من ابناء مرعش (جرمانيكية) ومن أصل اسوري انظر : (Theophanes,Chronographia,ed,Boor,391)
وكان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس الى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته : ان ليو كان من ابناء جرمانيكية ، وانه كان سوري المولد ، انظر ما جاء حول ذلك في :
(Chronographia Tripertila,eb.Boor,251.)
والواقع أن اسطفانوس الأصغر يؤيد القول بالأصل السوري ، ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب : العيون والحدائق (٢٥) ، انظر كتاب : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم (١/٢٨٩ — ٢٩١) .

(١) فتح القسطنطينية (٣٨ — ٣٩) .

(٢) السد البحري هو لاغلا ق ممر القرن الذهبي : يبدأ من شمال المدينة ، وينتهي عند حي (غلطة) وبالطبع استعملنا الاسماء الجغرافية الحديثة التي ماتزال مستعملة حتى اليوم ، لامكان إيضاح مكان هذا السد البحري بالنسبة للدراسين المحدثين ، انظر الخريطة المرفقة .

القسطنطينية
البوسفور
اسكدار

اليونانية) ، ذلك السلاح الذي نقل (المبادرة) من أيدي المسلمين الى ايدي الروم وأثر في مصير المعركة كلها تأثيراً حاسماً .

والمظنون أن رجلا من اهل الشام اسمه (كالينكوس) هو الذي نقل هذا السّلاح الى الروم ، في وقت كان الروم فيه بأمس الحاجة الى هذا السلاح (١) .

والمعتقد أن : (النار اليونانيّة) خليط من النفط والكبريت والقار ، ولكن نسب التركيب كانت سرية ، فكانت السنة القائمين بأعداد الخليط تقطع لأغراض الأمن والكتمان ، وكان هذا سراً خاصاً بالقسطنطينية فقط ، احتفظت به طيلة أربع مئة عام (٢) .

وقد أفادت هذه النار المدافعين مادياً ومعنوياً ، فاستفادوا منها لفتح ثغرات برية وبحرية بين صفوف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية تسربت منها المواد التموينية للمحاصرين من الروم ، كما رفعت معنويات الروم التي كانت منهارة .

كما أضّرت هذه النار بالمسلمين مادياً ومعنوياً أيضاً ، فكبدتهم خسائر فادحة بالارواح والمواد والسفن ، مما أدى الى زعزعة معنوياتهم التي كانت عالية في الصفحة الاولى من الحصار : صفحة المبادرة .

لقد أصبح موقف الجانب المدافع بقيادة الامبراطور الجديد الذي أعاد تنظيم قواته ، وادخر لهم ما يكفيهم من مواد تموينية ، مستفيداً من أسوار قوية ودفاعات منيعة تحيطهم من كل جانب ، ومن سفن جيدة في مرفأ محمي حماية قوية ، توافرت لهم النار اليونانيّة المؤثّرة .

أما موقف المسلمين ، فلم يكن ميؤساً منه ، فكانت الامدادات تصلهم بانتظام ولكنها لم تكن بشكل تجعل التفوق الى جانبهم ، وكان أملهم باستعادة المبادرة كبيراً ، فقاوموا وصبروا وصابروا انتظاراً لقوات ضاربة متفوقة تصلهم من القاعدة المتقدمة (دابق) التي يرابط فيها سليمان بن عبدالملك ليشرف على الامدادات بنفسه .

أما الصفحة الثالثة وهي صفحة : (المكابرة) ، فتبدأ من شتاء سنة تسع وتسعين

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي (١/١٧٩) .

(٢) فتح القسطنطينية (٣٩) ، وفي تاريخ التمدن الاسلامي (١/١٨٠) : ان هذه النار مزيج من الكبريت وبعض الراتنجات والادهان في شكل سائل يطلقونه من اسطوانة نحاسية مستطيلة ، كانوا يشدونها الى مقدم السفينة ، فيقذفون منها السائل مشتعلا ، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة أو قطع من الكتان المتلوث بالنفط ، فيقع على السفن او البيوت فيحرقها .

الهجرية (كانون الثاني – يناير ٧١٨م) الى انسحاب المسلمين من حصار القطنطينية في بداية حكم عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه .

كان موقف الروم في هذه الصفحة أفضل من موقف المسلمين بكثير ، وكان عامل الوقت بجانب الروم على المسلمين ، فكلما تقدم الوقت ازداد الروم قوة وازداد المسلمون ضعفا .

فقد أدى شتاء عام تسع وتسعين الهجرية (٧١٨م) القارس البرد بثلوجه وامطاره الغزيرة ، الى موت آلاف المسلمين ، لانهم تعوّدوا الطقس الحار الدافئ كما شلّت الرياح الهوج العاتية والتيارات البحرية الجارفة في (البسفور) سفنهم عن العمل (١)

ونفدت المواد التموينية للمسلمين ولم يبق منها إلاّ أقل القليل ، فأكلوا الدواب والجلود واصول الشجر وكل شيٍ غير التراب (٢)

كما انهارت معنوياتهم ، حتى كان الرجل منهم يخاف أن يخرج من العسكر وحده (٣) .

وكان الخليفة سليمان بن عبدالملك مايزال مقيماً في (دابق) ، فلم يقدر أن يمد المسلمين بشيٍ من الأزواد لكثرة البرد والثلوج (٤) .

لقد كانت الظروف قاسية بالنسبة للمسلمين في صفحة (المكابرة) بقدر ما كانت مؤاتية بالنسبة للروم .

ولعل الشتاء القارس (٥) كان من أقوى حلفاء الروم على المسلمين ، ولكن المسلمين تحملوا وصبروا الى درجة (المكابرة) ، حتى ضاق بهم الامر ، فكان لا بدّ لهم من التخلي عن الحصار والانسحاب الى قواعدهم .

ولكن لم تكن هذه العوامل وحدها هي التي جعلت كفة الروم ترجح على كفة المسلمين في ميدان القسطنطينية بالرغم من أهميتها ، إذ كان لتشبثات (ليو الثالث) التعبوية والادارية أثر ملموس في رجحان كفة الروم في ذلك الميدان .

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩) .

(٢) الطبري (٥٣١/٦) وابن الأثير (٢٨/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) ، وانظر مختصر تاريخ الدول (١١٤) .

(٣) الطبري (٥٣١/٦) وابن الأثير (٢٨/٥) .

(٤) العيون والحدائق (٣٣) وانظر الطبري (٥٣١/٦) وابن الأثير (٢٨/٥) وابن خلدون(١٥٥/٣)

(٥) كان شتاء سنة ١٩٤١ قارساً في روسيا ، فكان من اهم عوامل إخفاق المحور في هجومهم على الاتحاد السوفياتي .

فقد كان من ترتيبات (ليو) التعبوية قصف تجمعات المسلمين بالنار اليونانيّة ، فأدى ذلك الى ابتعاد قواتهم عن الاسوار ، فاصبح موقفها المراقب ، ولم يعد لهـا تأثير مباشر على المدينة المحاصرة (١)

كما أنّ (ليو) دأب على شن الغارات الليلية على قوات المسلمين ، كما دأب على وضع الكمائن لهم ،وهذا أدى الى تردي معنويات المسلمين كما ذكرنا . كما حرّض (ليو) البلغار فهاجموا جيش المسلمين ، ولكنهم هزموا !

كما بذل جهداً في وضع الكمائن لضرب مؤخرة قوّات المسلمين طُرق تموينهم ، مما أدى إلى حرمانهم من المواد التموينيّة في وقت هم بأمس الحاجة اليها .

وعند ما حلّ الربيع ، كانت قوّات المسلمين قد ضعفت كثيراً ، ولكنهم كانوا يأملون في استعادة (المبادرة)إلى أيديهم بالاستفادة من تفوقهم في البحر ، فأعدوا خطة هجومية من اتجاه البحر . وكان (ليو) ينتظر هذا الهجوم لا نزال ضربته الكبرى لتنفيذ خطتهم الهجومية . ولما اقتربت سفن المسلمين من المرفأ كانت سفن (ليـــو) بانتظارها ، فغمرتهم بالنار اليونانية ، وكانت النتيجة (دماراً كاملاً للسفن المهاجمة

---

(١) يبدو أن (ليو الثالث) حرض الصقالبة على المسلمين الذين كانوا يحاصرون القسطنطينية ، لكي يخفف ضغط الحصار على المدينة المحاصرة .

فقد جاء في البداية والنهاية (٣٢٨/٩) : أن مسلمة غزا القسطنطينية فحاصرها ، وافتتح مدينة الصقالبة وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد الى محاصرة القسطنطينية . . . انتهى .

وفي معجم البلدان (٥/ ٣٧٢) : الصقالبة بلاد بين بلغار وقسطنطينية . . . انتهى

أقول : ليس من المستبعد أن يستعين (ليو الثالث) بجيرانه الغربيين لمحاربة المسلمين المحاصرين للقسطنطينية ليشغل قواتهم ويكبدها الخسائر تخفيفاً لضغطها على مدينته ، فأجبر مسلمة على تخصيص قوة مناسبة من قواته لمحاربتهم ، مع ابقاء قواته الضاربة محاصرة للقسطنطينية ، والمصادر الا جنبية تؤكد أن (ليو الثالث) تلقى مساعدات حربية من الصقالبة ، وهذا من جملة محاولات (ليو الثالث) لكسب المعركة وجعل المسلمين يخفقون في مهمة فتح القسطنطينية .

والصقالبة هم ما يسمون : (Sulaves)

والمصادر الأجنبية تؤكد معاونة البلغار لليو الثالث ، ولكنها تبالغ كثيراً في جدوى تحت المعاونة ، فتدعي أن البلغار فاجأوا جيش مسلمة من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً ، انظر التفاصيل في (The Ophanes، Chron، 395 - 399)

فكم كان عدد البلغار المهاجمين حتى يقتلوا عشرين الفاً من المسلمين ! وكيف استطاع البلغار أن يفاجئوا جيش مسلمة من الوراء ! وهل كان جيش المسلمين نائماً ! .

إن المصادر الاجنبية التي ذكرت هذا الخبر لا تخلو من مبالغات غير منطقية ولا تستقيم مع الفكر العسكري .

(٢) الطبري (٥٣٢/٦)

فقد انهالت عليهم النار اليونانيةمن كل جهة : من السفن ، ومن اسوار المدينة ، ومن البر . وفي الارتباك الذي نتج عندما حاولت سفن المسلمين الانسحاب طلباً للنجاة ، أخذت تصطدم الواحدة بالأخرى ، فقفز الرجال الى البحر وغرقوا فيه ، وتحطمت هياكل السُّفن ، وهوت الصواري ،وضاعت المجاذيف . وفي تيار البسفور القوي ،انقلبت سفن كثيرة وغرقت ، وعندما انتهت المعركة ، لم تبق سفينة من سفن المسلمين في مدى النظر سالمة ، ويقال : انّ خمس سفن منها فقط نجت وعادت إلى سورية لتروي القصة . وكانت القصة هي قصة النار اليونانية التي تصب على سفن المسلمين من قدور كبيرة موضوعة على دكاك ، أو تقذف بكرات متوهجة حمراء من الحجارة او الحديد ، او ترمى بالاسهم اوالرماح المغمورة بالسائل الملتهب أو تنفخ في أنابيب طويلة من النحاس مثبتة في مقدم السفن ، فتحدث دخاناً اسود ثم انفجاراً يصم الآذان ، ومن ثمّ يَنتشر لهيب لا يمكن إيقافه ويسير حتى على الماء (١) .

لقد كانت هذه المحاولة الهجومية آخر سهم في جعبة مسلمة ، استعمله لاستعادة (المبادرة) (٢) من الروم ، ولكن لم يكتب لمحاولته النجاح .

ولم يكن مسلمة بدرجة من الغفلة بحيث لا يدري ما حلّ بجيشه مادياً ومعنوياً ، وبخاصة بعد نجاح (ليو) في تكديس الأرزاق الكافية لقواته ، وكان مسلمة يعلم انّ المسلك الوحيد المفتوح امامه هو : الانسحاب .

ولكن أمر هذا الانسحاب لم يكن بيده ، بل كان بيد الخليفة سليمان الذي كان مرابطاً في(دابق) ،معنياً بفتح القسطنطينيةأشد العناية ،ولا يرضى بالانسحاب ولا يوافق عليه .

ومات سليمان بن عبدالملك بدابق لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية (٣) فتولى الخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فوجّه إلى مسلمة وهو

---

(١) فتح القسطنطينية (٣٩ – ٤٠)

(٢) تشبه هذه المحاولة ما فعله الجيش الالماني سنة ١٩٤٤ في الهجوم على قوات الحلفاء المتفوقة في الجبهة الغربية ، واطلق على عملياته اسم : تعرض الاردين ، انظر التفاصيل في كتاب : المشير فون رونشتد (٢٧٠ – ٢٨٨) .

(٣) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (٣٧/٥) والعبر (١١٨/١) والمسعودي (١٨٢/٣) ، وفي شذرات الذهب (١١٦/١) والعيون والحدائق (٣٣) ، أن سليمان توفي لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين الهجرية ، وكذلك في التنبيه والاشراف (٢٧٥) .

محاصر للقسطنطينية ومره بالقفول منها بمن معه من المسلمين (١) ، ووجّه اليه خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحثّ الناس على معونتهم ، وكان عدد الخيل التي وجّهها لمسلمة خمس مئة فرس (٢) ، لأنه كان قدأصاب المسلمين مجاعة فقواهم بذلك (٣)

وكان قرار عمر بن عبدالعزيز بانسحاب مسلمة حصيفاً صائباً ، لا لأنّ عمر غير ميال إلى حروب الفتح والاستيلاء (٤) ، بل لأن موقف المسلمين المحاصرين للقسطنطينية كان ميؤساً منه ، فأمر بانسحابهم حقناً لدمائهم ، بعد أن بلغ بهم الجهد (٥) ، إذ لم يغفل أبداً عن غزو الروم دفاعاً عن حدود أرض الشام الشمالية . وليس صحيحاً أنه لو طال أجله لأجلى المسلمين عن الاندلس لأنه رآى مقامهم فيها غير طبيعي لاحاطة الأعداء بهم (٦) ، لأن (ناربون) من أعمال الأندلس فتحت في أيامه وحصنت (٧) ، كما سمح بامتلاك الفاتحين

(١) تبالغ المصادر الاجنبية في خسائر مسلمة ، ومجمل ما ذكرته تلك المصادر : جاء شتاء سنة ٧١٧ م – ٧١٨ م بثلج دام ثلاثة أشهر ، فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار وفي ربيع سنة ١٧١٨ م ، وصل اسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرطوس . واحتل هذا الجيش شاطئ البسفور الاسيوي ، ورسا الاسطول في مياهه ، فتسللت سفن النار الرومية الى مرسى الاسطول المصري فاحرقته ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إرباً . وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة ، ثم فاجأه البلغاريون من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين الفاً ، فتراجع عن عاصمة الروم بعد أن فقد معظم جيشه ، وتعرض الباقي من اسطوله لعاصفة في بحر ايجة ، فلم يعد الى شواطئ الشام سوى خمس سفن فقط ، أنظر التفاصيل في
(Canrd, M., Expé Tions Arbaes , Journa.L Asiatique 1929, 102 - 80)
والمبالغة واضحة للغاية ، إذ كيف تسللت سفن النار الرومية الى مرسى الاسطول المصري فاحرقته ! ! أكان هذا الاسطول في سبات عميق الم يدافع عن نفسه ؟
وكيف فاجأ البلغاريون جيش مسلمة من الوراء ! ! ألم يتخذ مسلمة تدابير الحماية ! ألم يكن له دوريات وارصاد ! ثم كيف يمكن أن يتسلل البلغاريون من وراء جيش مسلمة ومن أين ! تلك مبالغات لا تستحق الرد عليها لأنها لا يمكن أن تحدث في الحرب فعلا .

(٢) الطبري (٥٥٣/٦) وانظر ابن الأثير (٤٣/٥) والعيون والحدائق (٣٩) وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز (٣٢) وانظر المعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) وتاريخ خليفة ابن خياط (٣٢٦/١)

(٣) العيون والحدائق (٣٩) ، وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز (٣٢) .

(٤) يوليوس ولهاوزن – الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

(٥) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٦) خطط الشام (٥٥٢/١) .

(٧) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

للارض في الاندلس، مستهدفاً تعلق المسلمين بارضهم عن طريق امتلاك الارض ، وقيل : إنه اتخذ عمر بن الخطاب رض الله عنه مثالا له فيما عمله بالهند ، فلو لم لم يعط عمر بن الخطاب المحاربين الأرض في الهند ، لكان الدفاع عن هذا القطر مستحيلا (١) . وبالطبع لم تفتح الهند في أيام عمر بن الخطاب ، والمقصود بالهند المناطق المتاخمة لها من بلاد فارس .

اماسبب رد جيوش المسلمين من الشرق ، ومنعهم من التوغل فيه قائلا : « يكفى مافتح الله على المسلمين من فتوح »(٢) ، فسببه المباشر تردى الاوضاع العسكرية في تلك المناطق .

والواقع أن عمر بن عبد العزيز ورث تركة مثقلة بالفوضى ، فكان همه الاول موجهاً الى السياسة الداخلية ، فأحدث تغييراً فيها (٤) ، إذ ليس من المعقول أن تعج بلاده بالفوضى وهي قاعدة الفتح ومرتكزه ، ثم يصرف همه الى الفتح ، فيكون كالذي يشيد قصراً على جرف هارٍ .

كما أنّ مدّ الفتح الاسلامي كان قد بلغ أوجه ، وفقد الدافع الأول لاستمراره وهو الجهاد في سبيل الله ، فغيّر الناس مابأنفسهم ، واصبح اكثرهم يشهد الفتوحات للغنائم .

لقد أحسن سليمان بن عبدالملك في الاعداد والامداد ، فقد وضع مهمة فتح القسطنطينية فوق كل مهماته العسكرية والادارية ، وجعل لها الاسبقية الاولى على كل اعماله الاخرى ، وقضى أيام خلافته كلها في (دابق) ، وارسل ولده داءود الى القسطنطينية مع مسلمة (٤) ، دليلا على شدة حرصه على فتحها ، وامر مسلمة أن يقيم على القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره (٥) ، فلم يأمره بالانسحاب حتى توفاه الله دليلا على اصراره البالغ على تحقيق الفتح .

---

(١) Dozy, Recherches (1881,),1,76

(٢) خطط الشام (١/٥٥٢) . (٣) الدولة العربية وسقوطها (٢١٨) .

(٤) العيون والحدائق (٣٨) وبقي مع مسلمة الى نهاية الحملة

(٥) العيون والحدائق (٣٢) ومختصر تاريخ البشر لابي الفدا (١/٢٠٠) .

كما أحسن سلمة في قيادته ، فبقي محاصراً للقسطنطينية ثلاثين شهراً حتى أكل عسكره الميتة والعظم وقتل منهم خلق كثير (١) فما وهن ولاتوانى ولا ضعف عن النهوض بواجبه .

كما أحسن عمر بن عبدالعزيز في قراره بانسحاب المسلمين عن القسطنطينية ، لأنّ الموقف العسكري كان يتطلب إصدار مثل هذا القرار ، ولو كانت كفة المسلمين راجحة في حينه ، لكان من المستحيل عليه الامر بانسحاب المسلمين ، ولكان هناك مسوّغ للادعاء بأن عمر بن عبدالعزيز غير ميال لحروب الفتح ، دون تمحيص للموقف العسكري الراهن .

---

(١) البدء والتاريخ (٤٤/٦) ، وقد بدأ الحصار في ١٥ آب (أغسطس) ٧١٦م وانتهى في١٥ آب (اغسطس)٧١٨ م كما تنص على ذلك المصادر الا جنبية و بذلك يكون حصار المسلمين للقسطنطينية عامين لا ثلا ثين شهراً .

اما المصادر العربية فتنص على أن الا نسحاب جرى في أيام عمر بن عبدالعزيز أي تشرين الا ول (اكتوبر) سنة ٧١٨ م أي أن حصار المسلمين للقسطنطينية سنتان وشهران .

وارى ان المسلمين لا يمكن سحبهم بعد استلا م أمر الا نسحاب مباشرة ، أي بعد تولي عمر ابن عبدالعزيز الخلا فة مباشرة ، فلا بد من اتخاذ تدابير الا نسحاب حسب خطة مرسومة حتى لا ينقلب الانسحاب الى هزيمة ، وهذا يستغرق ما لا يقل عن اربعة أشهر ، لامكان ترقيق الجبهة والانسحاب تدريجياً ، وبذلك يكون ما جاء في البدء والتاريخ ، من حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلا ثين شهراً صحيحاً واقرب الى المنطق العسكري ، وانظر أيضاً مختصر تاريخ الدول (١١٤) حول حصار المسلمين للقسطنطينية لمدة ثلا ثين شهراً .

وفي البداية والنهاية (٣٢٨/٩) : فلما ولي عمر بن عبدالعزيز أرسل اليهم بالبريد يأمرهم بالرجوع الى الشام فحلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيراً بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعاً ومنارة ، فهو بها الى الآن يصلي ، فيه المسلمون الجمعة والجماعة . . . انتهى .

أقول : لا نستبعد أن الروم بالرغم من رجحان كفتهم في الا شهر الا خيرة من حصار القسطنطينية ، الا أنهم كانوا يتمنون انسحاب المسلمين عنهم ، لطول بقائهم محاصرين ، ولخوفهم من قدوم امدادات جديدة من الرجال والا رزاق ترجح كفه المسلمين عليهم ، لذلك رضخوا لشرط مسلمة و بنوا جامعاً ، ومما يدل على ضعف قوة الروم في أيام انسحاب مسلمة ، عدم قيام الروم بمطاردة المسلمين في أثناء انسحاب المسلمين .

لقد كانت قوات الروم قادرة على تحمل اعباء حرب دفاعية ، ولكنها لم تكن قادرة على تحمل حرب تعرضية ، لذلك لم يستطيعوا مطاردة المسلمين بعد انسحابهم .

وفي حوادث سنة خمس وخمسين واربع مئة (أن ملك الروم عمر جامع مسلمة في القسطنطينية ارضاءاً لطغرلبك ، وعلق فيه القناديل ، وجعل في محرابه قوساً ونشابة ، انظر ابن الاثير (٢٨/١) .

إنّ عمر بن عبدالعزيز ، مظلوم بهذا الادعاء الذي صدر عن مؤرخين غير عسكريين ذوي اختصاص بالقضايا العسكرية ، ومثل هذا الحكم خارج عن نطاق اختصاص المدنيين ، وفاقد الشيء لايعطيه ، ولم يكن عمر بن عبدالعزيز وشهرته كلها في حرصه على تطبيق تعاليم الدين الحنيف ، ليجمّد فرض الجهاد ،وهو روح الاسلام الحركي وبدونه يبقى الاسلام جثة هامدة بدون روح .

ولم يستطع المسلمون الذين كانوا بقيادة مسلمة فتح القسطنطينية من جراء أخطاء سَوْقِية تعبوية ارتبكتها قيادتهم القادرة ، ولا من جراء تهاون قواتهم وضعفها ، ولكنهم أخفقوا في فتحها لأسباب عسكريّة قاهرة : منها مناعتها الطبيعيّة والاصطناعية التي سهّلت أمر الدفاع عنها ، ولرصانة أسوارها وخنادقها المحيطة بها قوّة ومتانة ، ولأنّ الحصار من جراء ذلك طال أمده كثيراً فاستغرق ثلاثين شهراً والعرب في طبيعتهم لا يصبرون على حصار طويل الامد ، لان برد شتاء سنة تسع وتسعين الهجرية (٨١٨ م) كان قارساً شديداً بصورة غير اعتيادية (١) ، والعرب لا يتحملون البرد القارس الشديد ،وهذا البرد غير الاعتيادي حرمهم من الامدادات العسكرية والتموينيّة ، والجندي لا يقوى على البرد وهو جائع ، واخيراً وليس آخراً مقاومتهم بسلاح جديد لا علم لهم بأسلوب الوقاية منه وليس لديهم سلاح يقاومه ، وهو النار اليونانية التي فتّ استعمال الروم لها في مقاومة العرب بعضدهم واثر في معنوياتهم وكبدهم خسائر فادحة بالارواح والسُّفن والمعدّات .

وتاريخ الحرب في جميع العصور ، يقرّر أنّ من أهم أسباب عوامل النصر هو استعمال سلاح فتّاك جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمال أسلوب قتاليّ جديد لا يتوقعه الخصم ، أو استعمالهما معاً في الزمان والمكان المناسبين بشكل لا يتوقعه الخصم ، وكل ذلك يباغت هذا الخصم ويربك قيادته وخططها المرسومة ، والمباغتة كما هو معروف هي أهم مبادئ الحرب على الاطلاق

ومن الانصاف أن نضيف الى عوامل انتصار الروم في الدفاع عن القسطنطينية عاملاً آخر هو : كفاية (ليو الثالث) المتميزة في القيادة ، وتشبعه بمزية إرادة القتال واذا كان هناك ما يلام عليه مسلمة في حصار القسطنطينية ، فهو عدم استفادته

---

(١) العيون والحدائق (٣٢) .

كما ينبغي من صفحة : (المبادرة) ، في التركيز بالهجوم على المدينة المحاصرة وإدامة زخم الهجوم عليها أولاً ، وثقته غير المحدودة بحليفه (ليو) ، لان الذي يخون بلاده وقومه أولى أن يخون غير بلاده وغير قومه ، فكانت هذه الثقة العمياء بهذا العميل لا مسوِّغ لها ثانياً ، فالحرب من القضايا المصيرية ، ولا بدمن إدخال أسوإ الاحتمالات في كل ما يؤثر في نتائجها من قريب أو بعيد (٢) .

إنّ حصار القسطنطينية (١) كان ملحمة من ملاحم تاريخ الحرب المهمّة ولكنها لم تكن معركة حاسمة من معارك تاريخ الحرب ، على الرغم من محاولات المؤرخين الاجانب اعتبارها معركة حاسمة ، بادعائهم أنّ المسلمين لو فتحوها

---

(١) ورد في كتاب : فتح القسطنطينية ، ما نصه : « لو سقطت القسطنطينية عام (٧١٧ م) ، لما عاشت المسيحية ، ولذلك فالعالم المسيحي مدين الى (ليو الثالث) بالحفاظ على المدينة والمسيحية لمدة (٥٠٠) سنة أخرى ، ولولاه لكان من المحتمل جداً أن يتبدل مجر ى التاريخ ، فلو نجح المسلمون سنة (٧١٧م) ، لكان من المحتمل أن يكون عالمنا إسلا ميا بحتاً » .

أقول : وهذا الادعاء لا يخلو من مبالغة ، لتضخيم انتصار الروم وجعله من الا نتصارات الحاسمة في دينهم في تلك المدينة وفي البلاد التي فتحها العثمانيون ، وقد فتح المسلمون أرض الشام والعراق ومصر في الصدر الا ول للاسلام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وما يزال المسيحيون في تلك البلاد حتى اليوم !

(٢) أفاض (بروكس E. W. Brooks) في سرد غزوات المسلمين في اسيا الصغرى . مستقياً معلوماته مع التعليق عليها في بحثه الموسوم : العرب في اسيا الصغرى من سنة (٦٤١) م الى سنة ٧٥٠م) ، وعنوان بحثه The Arats in Asia Minor,641 To 75o ص٢٢ المنشور في مجلة الدراسات الهلنية Jorwrnal of Hillenis Studies المجلد(١٨) سنة (١٨٩٨م) .

وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم في ايام خلافة سليمان بن عبدالملك في مقال نشره في مجلة الدراسات الهلنية أيضاً (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩م) بعنوان : « حملة سنة (٧١٦ م الى سنة ٧١٨م) بحسب المراجع العربية » :

The Campain of 716 to 718 from Arabis Sources

وتناول هذا الموضوع من الجانب البيزنطي الأستاذ (بوري J.B. Bury) في كتابه : The HisTory of the Later Roman Empire) المجلد الثاني ص (٤٠١) .

وهناك دراسات في هذا الموضوع كثيرة ، ترجم بعضها الى العربية ، وكلها تجعل حصار القسطنطينية معركة حاسمة ، وهي ليست كذلك بحال من الا حوال .

لاصبحت أوربا قارة إسلامية (١) .

والواقع أنها كانت معركة تعبوية ، ولو فتحها المسلمون حينذاك ، لاصبحت حدود الدولة الشمالية اكثر أمناً واستقراراً ، وربما امتددت الفتوح الى قسم من بلاد غربي أوربا ، لانّ أوضاع الدولة الاسلامية داخلياً ، لم تكن مستقرّة في تلك الايام ، بل كانت مضطربة تسودها الفوضى والفتن والقلاقل والاضطرابات فكانت الدولة في شغل شاغل لاقرار الأمن الداخلي ، ولم تكن في موقف يسمح لها بالانطلاق في مجالات الفتوح .

وقد استفاد الرُوم من دروس حصار القسطنطينية استفادة كبيرة ، فكانوا يطبقونها في الدفاع عن مدينتهم منذ انسحب المسلمون عنها بقيادة مسلمة ، وفي صدّ محاولات غيره من القادة المسلمين من بعده لفتحها ، وفي دفاعهم عنها حتى أيام السلطان محمد الفاتح (٢) ، وهذا مكسب عظيم للرّوم .

لقد كان حصار القسطنطينية ملحمة رائعة بالنسبة للمسلمين والرّوم على حد سواء.

يتبع

محمود شيت خطاب

---

(١) انظر مثلا ماجاء في كتاب : فتح القسطنطينية–برناردين كيلتي Bernardine Kielty ص (٤٠) ، وقد ذكرنا نص ما جاء في هذا الكتاب سابقاً .

(٢) انظر سيرته في كتابنا : بين العقيدة والقيادة – ص (٣٥١ – ٤٦٦) ، وانظر ما جاء فيه حول غلق القرن الذهبي بسلسلة حديدية هائلة في ص (٢٥٦) من هذا الكتاب ، وهو درس عسكري استفاده في ذلك الزمن المتأخر امبراطور الروم حينذاك من (ليو الثالث) الذي كان أول من استعمل مثل هذه السلسلة في ايام حصار القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبدالملك .
ومن المعلوم ان السلطان محمداً الفاتح فتح القسطنطينية يوم الثلا ثاء (٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٧٥هـ – ٢٩ مايس – مايو – ١٤٥٣م) ، انظر ص (٤٠٦) من : بين العقيدة والقيادة .